

كلمة العدد

ك.ل.م.ة:

بقلم: عمر الكتراري

(1) إذا وضعت الحروف في هذا الترتيب تحصلت على "كلمة" وهي المفردة/ أو العبارة.

الكلمة مركبة من حروف تحمل معنى: مثل "كتاب/ قرأ"...

يقال أحيانا أن الكلمة تأخذ معناها داخل السياق أي إذا وردت في جملة. لكنها تبقى مفيدة حتى في حالة الانفراد.

وقد يتجاوز معنى الكلمة مجرد المفردة. فيقال "ألقى الخطيب كلمة". بمعنى خطابا، فالكلمة هي الكلام، الكلمة هي الكلمات، هي النص يطول أو يقصر حسب المقام.

وصفت الكلمة في النص القرآني بالطيبة أو بالخبيثة والمعنى هنا يتجاوز المفردة ليلعب الخطاب المعبر عن الأفكار والتوايا. و"الكلمة" في المعاملات اليومية والعلاقات البينفردية تأخذ معنى الوعد والصدق والالتزام فتشحن ببعد أخلاقي - يجعلها في عداد العقود الملزمة والترتيبات المقيّدة.

(2) إذا غيّرت الترتيب تحصل على م.ل.ك.ة: **مَلَكَةٌ** و**الْمَلَكَةُ** مرتبة الحذق والموهبة والحرفيّة. فيمكن للكلمة أن تصبح **مَلَكَةٌ** لدى من أخذ بناصية اللغة وصار لديه من الفصاحة وحسن التعبير وجمال الصياغة ما يبوّته هذه الدّرجة.

و**الْمَلَكَةُ** "حسب ابن خلدون" تحصل بالتكرار.

وقد أيد ذلك علم النفس فأوجد قانون التمرين La loi de l'exercice الذي يستخدم في التعلّم حيث يتساوى الإنسان والحيوان في المستويات الدنيا لهذا التعلم.

(3) أما إذا غيّرت حركة حرف اللام فعوضت الفتحة بكسرة فتحصل على "**مَلَكَةٌ**" فالكلمة تعلو لتصبح **ملكة** تحكم فتأمر وتنتهى وتقرّ وتنفى وتبارك وتخالف وتقبل وتعرض وتشيع الفرحة وتبتّ الحزن وتعطي وتمنع...

إنّ للكلمة سلطانا. فلطالما اشرأبت الأعناق وخشعت الوجوه وران صمت مطبق في انتظار كلمة تغيّر مسار التاريخ وتحدث انعطافا فكرياً أو عقائدياً أو اجتماعياً يربك المنظومة القائمة سواء بالنسبة إلى الفرد أو المجموعة.

(4) أما التغير الآخر في ترتيب الحروف الأربعة الآنفه المذكّر فيأخذك إلى **الحَلَبَةِ**.

"اللّكمة" يسدّها هذا فيتفادها ذاك إن كان يقظا لبقا مراوغا
ماهرا أو يتقبّلها فتختلف النتيجة تبعا لقوّة المرسل وطاقة المرسل
إليه.

هذا في عالم الملائكة.

أمّا في عالم الكلمة فالتراشق بالكلمات لا يقل ضراوة على ما
يجري فوق الحلبة، إذ يستعيض المتبارون عن قبضة اليد والقفاز
بالكلمة "لإيذاء الآخر"

وإذا كان بين المتبارين على الحلبة حَكَمٌ يدير الصّراع ويمنع
التصرف الخارج عن قانون الإيذاء وحرسٌ ينهي الجولة ففي عالم
الكلمات بالكلمات يغيب صاحب الزي الأسود (أو الأبيض)
ويؤول الأمر في تحديد الانتصار إلى من هو أصلب عودا وأقوى
شكيمة وأفضع قاموسا.

وفي نهاية المطاف لا يحتاج المتأمل إلى كبير عناء لتبين الخط
الرابط بين الكَلِمَة والمَلَكَة والمَلِكَة واللُّكْمَة فهل بعد هذا تقرّ من
الألسنين بمبدأ الاعتبار في نحت الكلمات؟

الدلالة المعاصرة للأسطورة في سدّ المسعدي

بقلم : عبد المجيد يوسف

لم يفتأ الإنسان منذ بدء الوعي لديه يتساءل عن ماهيته وعلاقته بالكون، فامتدّ الكون وغموضه ساق الإنسان إلى السؤال الميتافيزيقي. كما أن الطبيعة احتوت على قدر كبير من الغموض والمعميات، مما حدا بالإنسان إلى وضع نظام أسطوري يقدم به إجابة ما عن المسألتين الميتافيزيقية والطبيعية.

إن التصور الأسطوري للكون يقوم على وضع نظام كلياني يتفرّع إلى نوع من التخصصات المتصلة بحياة البشر في مختلف فروعها. إنه نسق نظامي هرمي سلطوي ينظمه وقوانينه المقدسة شبيهة بحكومة ذات وزارات تكنوقراطية وظيفته تنظيم حياة الإنسان في علاقته بالمقدس المتعالي. وإذا لم يتحلّ هذا المقدس بشكل علني حسي فقد اتخذ من النصوص وسيلة للسيطرة على العالم، وقد وضع الإنسان هذه النصوص بنفسه في غياب نصوص منزلة سماوية، وهكذا نشأت ثنائية المقدس والمدنس من هذا التقابل بين الإنسان وما تمثله فيه المادّة من قوى ورغبات آثمة وبين السماء وما أسنده

1- كألّهة الزراعة في الميتولوجيا الفرعونية أو تيميس ألّهة العدل في الميتولوجيا الإغريقية.

ويمكن ملاحظة التطابق بين هيكل الحكومات في العصر الحديث والنظام الأسطوري في العهد القديم حيث وقعت أنسنة المقدس، ثم قدّس الإنسان في ما نعرفه اليوم من تقدّس الممثلين للسلطة وهيبة الدولة وتعالى مؤسساتها ذات الطابع الردي.

إليها الإنسان - انطلاقاً من حاجاته الداخلية - من كبت لهذه الرغبات أو تقنين لها، ويمكن حينئذ أن نصادر بعض المقولات المتصلة بجوهر العالم الأسطوري:

* إن العلاقة القائمة بين الإنسان والسماء من منظوم العالم الأسطوري علاقة عدائية حيث لا يمكن أن يجتمعا إلا على أساس الإخضاع والخضوع لا على أساس التحدي والمعاقبة.

* إن التصور الأسطوري للكون لا تاريخي ومتجاوز لمقولي الزمان والمكان، ويمكننا أن نقارن على سبيل المثال بين عديد الميتولوجيات المنسوبة إلى أمم مختلفة الأمكنة والأزمنة لنصادر التشابه إن لم نقل التطابق بينها¹ فهذا التصور الأسطوري لنظام الكون مرده العمق الأنطولوجي للإنسان².

* إن النصوص التي صيغت لوضع تصوّر للكون تتركب من خطابات حكائية تصوّر ماهية الكون وتفسّر ظواهره. فالنصوص المقدسة لم تكن في البداية على شكل تشريعات وتعاليم، بل كانت أحاديث ترسم وقائع انبثقت من صلبها الظواهر الطبيعية.

1- نذكر على سبيل المثال التشابه بين قصتي الزوجين أدونيس وفينوس وتموز وعشتار أو بين الثالث فينوس وعشتار وحاطور.

2- يمكن التأكيد على ذلك من خلال عمل عالم الأدب الروسي فلاديمير بروب حيث أرجع بنية الحكاية الشعبية في مختلف الثقافات إلى أصول واحدة وصادر خضوعها لذات البنية. انظر: vladimir PROPP: Morphologie du conte.

Collection Point éd. seuil PARIS

لقد صاغ الإنسان ديانته الأولى في قالب حكائي، ولعل هذا متعلق بالمستوى الذهني للإنسانية. فالحكاية تمثل إجراء وتقريباً وتمثيلاً موضحاً للتعاليم حيث يدعى الإنسان إلى الملاحظة والاعتبار بعيداً عن التجريد الميتافيزيقي.

لقد جاءت الفلسفة فحلّت محل النظام الأسطوري واضطلعت بمهمة السؤال عن قدم المواضيع وحديثها فأحيل النظام الأسطوري على وظيفة أخرى غير وظيفته القديمة وأمكن للإنسان أن يفكّكه وقد كان متّسماً بالتكامل والترابط والكليانية فعزل العنصر عن البنية وافرد الأحداث الأسطورية عن النسق الذي وردت فيه واستعملها في أغراض غير الغرض الديني، استعملها في الفن لثرائها الرمزي بالمعاني المرجعية لأن تقادماًها اكتسبها غمضة ثابتة وشيوعاً بحيث أصبحت نظاماً من الدلالات خارج نظام اللغة ومنضافاً إليه، فتنوّعت بها الوسائل التعبيرية في النص الحديث (لو قصرنا اهتمامنا على الأدب) من ذلك ما عمد إليه شعراء وكتاب كثيرون كالسياب والمسعدي وعبد الصبور وأدونيس وغيرهم.

لم يكتف الأدباء باستغلال الدلالة المرجعية للرموز الأسطورية ولكنهم تصرفوا في تلك المرجعية فحملوها أبعاداً مضافة مثلما فعل المسعدي بأسطورة أساف ونائلة أو ما أتاه السياب من

مزج بين عناصر الأسطورتين البابلية واليونانية حيث نتج عن تمازج الأسطورتين أسطورة جديدة ذات دلالات معاصرة¹.

ذكرت المصادر الأدبية² ما معناه أن أساف ونائلة قدما مكة من اليمن حاجين وكان بينهما حب فتضاجعا في الكعبة، فمسحا حجرين ونصبا للعبرة. وبتقادم عهد الصنمين تحولاً من صفة الذنس إلى القداسة فأصبحت الذبائح تنحر عندهما. ويمكن ملاحظة التطابق أو التماثل بين هذه الأسطورة ومثيلتها اليونانية حيث أوحى فينوس إلى هيوميونوس أن يضاجع زوجته أطلنطا في المعبد لأنها تريد الانتقام منه بإيقاعه في الإثم، لكنه أغفل أن يشكرها فمسحا حيوانين كريهين.

وقد ورد سرد أساف ونائلة في المنظر السادس من رواية "السد" من طرف غيلان. إن الأسطورة كما وردت في الميثولوجيا تثير قضية المقدس والمدنس لكنها في السد تتخذ منحى آخر، إذ أن الكاتب تناول جانباً مجهولاً لم تروه المصادر فقد أورد الكاتب اسم "إسال" محرفاً عما هو معروف من أمر الأسطورة فالفتى يدعى "إساف" ولا نعلم سبب هذا التحريف لكن نرجح أنه عائد إلى

1- نذكر على سبيل المثال قصيدة تموز حيكور من ديوان أنشودة المطر...
2- أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ج5 أو كتاب الأصنام لابن الكلبي تحقيق احمد زكي. الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1965

اختلاف الروايات. ولئن كان هذا التغيير سطحيًا وطفيفًا وغير حامل لدلالة -فيما يبدو- فإنّ التغيير العميق حصل في إخراج معنى الأسطورة من مجال العلاقة بين المقدس والمدنّس إلى دلالة صوفيّة لا علاقة لها بالنصّ الأصلي في الميثولوجيا. فإساف كان شخصًا مدنّسًا حسبيًا يحبّ نائلة ويتخذها محطّته وموقفه ونهاية طريقه. أمّا "إسال" في رواية السدّ فيكره الزول والتوقّف ويرى أنّ الطريق لا تكون طريقًا حتى تكون بلا نهاية، إنّه صورة من غيلان وقد أورد غيلان أسطورة إسال لشعوره بالتماهي بينهما وليتخذها ضربًا من الرمز لمسيرته، فمسيّرة غيلان مسيرة صوفية غايتها السير بالإنسان على طريق الخلق حتّى ينفى فيه. ولا يعنيه أثناء ذلك أن ينفي القلب ويبعد الحسّ. وهكذا يمكن أن ترجع الأسطورة كما وردت في الرواية إلى هذه الرؤية الصوفية للوجود الإنساني لا على سبيل الحقيقة بل على سبيل المجاز. فالصوفي عند أهل التصوّف هو الفاني بنفسه الباقي بالله، المطلع على الحقيقة المطلقة، المجاهد في طلب التسامي قصد بلوغ هذه الحقيقة والفناء فيها، وليس غيلان متصوفًا بهذا المعنى ولكن سبيله في بناء الحضارة المادية كسبيل الصوفي: اطلّع بفكره وبتعلّل ذاته والعالم على ما بدا له حقيقة وهو ألوهية الإنسان وجمعه لكل الحقائق الوجوديّة، فبدا له إحلال الإنسيّة محل العبادة (وهي الفلسفة التي ينقدها المسعدي يجعل السدّ ينهار وينقدها توفيق

الحكيم في مسرحه الذهني وفي أوديب خصوصا حين جعل الآلهة تنتصر في النهاية) لذلك احتوت هذه الأسطورة على الكثير من المصطلحات الصوفية كالرحيل والفناء والطريق واللاهية... وبذلك تصبح نوعا من التصغير والتمذجة لرواية السدّ كلّها حيث تتناظر العناصر وتتحد الأفكار وتتطابق الشخصيات، فإسال هو غيلان ونائلة هي ميمونة وطريق "إسال" هو سبيل غيلان في بناء سدّه. إنّ هذا المضمون مضمون الإنسان المتألّه مثله إسال مشيرا إلى غيلان ومثله غيلان مشيرا إلى فكرة الإنسان الممتاز التي سادت الفكر الأوروبي (الجرماني) في القرن التاسع عشر. وقد يكون نيتشه (1844-1900) هو أوّل من بلور فكرة السوبرمان الذي لا يقف عند العراقيل أيّا كانت أو لا يتحدّد بحدود خاصية تلك العائدة إلى طبيعته الضعيفة وخلقه الهش، فدعا إلى فكرة القوة في كتابه "هكذا قال زرادشت" ويتّضح من خلال اعتماده أقوال الحكيم زرادشت أن الإنسان الإله ليس فكرة حديثة تماما والمهم أن النيتشوية تولد عنها الفكر النازي القائل بتفوق العرق الجرمني، ومن خلال حربين عالميتين تبلورت بوضوح فكرة الإنسان الإله، فقد استطاع التخلص من الأرض وطار وغاص في البحر وسيطر على أعماقه¹ وهكذا

1- وقع استعمال الطيران الحربي من طرف ألمانيا للمرة الأولى في حرب 14 - 18 والغواصة هي أيضا ابتداء ألماني.

يختلط ما هو فلسفي بما هو تاريخي حين يصبح الفكر سياسة ويتطابق النظري والعملية.

لقد تمخّض عن الفكر النيتشوي وسيلة النازي الفاشية مواقف في الفلسفة والفن بعد نهاية الحرب العالمية الثانية حيث ظهرت الوجودية نافية كل ماهية مسبقة للإنسان وجعلت الماهية لاحقة للوجود وحصيلته، ففكرت حينئذ بالنظام القيمي الذي كان يسود عالم ما قبل الحرب، لأن هذه القيم أدت إلى قتل الإنسان بالجملة والاعتداء على حريته وممتلكاته، فقد كان احتلال شمال فرنسا حدثاً هزّ كيان فلاسفتها ومفكرّيها وكان من العمق بحث أثر على الفلسفة وطال الفن فاقترحت الوجودية بدلاً عن فكرة الإنسان الممتاز، وأعلن الإنسان المؤمن الإنسان الحر المسؤول الملتزم الشاعر بوجوده المادي مرهفاً حاداً لأنه كلّ كينونته.

إن آثار فلاسفة مثل كيركجارد (1813-1855) الذي يعتبر أب الفلسفة الوجودية ظاهرة في فكر المسعدي من خلال السد، عليه تماماً التمشي الفكري لكيركجارد وحياته وسيرته، قد كانت حياته مجاهدة حقيقية ليجد حقيقة نفسه، كان مؤمناً أن هذه الحقيقة كامنة فيه هو لا في ما هو خارج عنه، ما مثل غيلان:

" تدعو إلى ماذا؟ إلى أي إيمان؟ إيمانك بنا؟ أم إيماننا بك؟¹

وقد نفى عن كير كجارد أن يكون فيلسوفاً وجودياً ونفسي
عن فلسفته أن تكون وجودية أي أنها ليست بحثاً نظرياً في الوجود
بقدر ماهي استخلاص من الموجود تسعى إلى الملء الأنطولوجي
للإنسان، كذلك غيلان لا يتفلسف ولكنه يبيّن وجوده بالفعل
والتجربة وإعادة التجربة:

-ميمونة: ثم ألم ينفجر عليك ماء دافق... جرف أعلى
سدك وحطّم شهرين كاملين من عملك وجهدك؟

-غيلان: ولكننا تألبنا على المياه فرفعنا ما حطمت...¹

لكن الاختلاف عن كير كجارد ممثّل في موقع الدّين من هذه
الفلسفة حيث يجعل كير كجارد أرفع مراتب الوجود الدّين- وهو
اختلاف، ليس بين المسعدي والفيلسوف الدّيناري ولكن بينهما
وبين غيلان، حيث تلتحق مسيرة هذا الأخير بمسيرة الفكر الوجودي
في فترة ما بعد الحرب النافي للماهية المسبقة والمؤمن بأنّ هذه الماهية
ناجئة عن التجربة التّراكمية. إنّ الإنسان الذي اقترحته الوجوديّة
ليس قوياً كإنسان نيتشيه، لكنّه مع ذلك قويّ. وقوّة الوجودي
ليست محطّمة ولا طاغية بل هي قوّة بناء للمعنى تحاول خلقه حتّى
داخا العبث، لذلك فغيلان لم يشعر بالعبث من جرّاء الانهيارات
المتكرّرة للسّد. وخطأ زعم طه حسين أنّ غيلان بطل عبثي بالمعنى

الَّذِي أَرَادَهُ كَامُو فِي رِوَايَةِ "الْغَرِيب". لَقَدْ أَدَّى سَدَّ الْمُسْعَدِي مَسَاهِمَةً فِي رَدِّ الْفِعْلِ عَلَى فِكْرَةِ الْإِنْسَانِ الْإِلَهِ وَعَلَى الْفِكْرِ الْنَيْتَشَوِيِّ وَسُلَيْلَةِ النَّازِي، وَلَعَلَّ تَارِيخَ تَحْلِيلِ الرِّوَايَةِ 1939 (خِلَالِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ) يَدُلُّ عَلَى عِلَاقَةٍ بَيْنَ مَضْمُونِ الْكِتَابِ وَهَذَا الْفِكْرِ.

لَقَدْ قَالَ نَيْتَشَةُ بِأَنَّهُ قَتَلَ إِلَهَ فَجَاءَ الْمُسْعَدِي وَقَتَلَ هَذَا الْإِنْسَانَ الَّذِي إِذْعَى قَتَلَ الْإِلَهَ فَخَلَّدَ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ مَا هُوَ إِيَّاي (دَوَامِ الْمَحَاوَلَةِ فِي حُدُودِ الْمَتَزَلَّةِ الْإِنْسَانِيَةِ) وَقَتَلَ فِيهِ نَزْعَةَ التَّنَطُّفِ وَالْغُلُوفِ (دِمَارِ السَّدِّ) وَدَلَّهُ عَلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ (رَمْزِيَّةُ السَّرَاجِ) الَّذِي هُوَ طَرِيقُ الْإِنْسَانِيَةِ وَالْأُلُوهِيَةِ.

أَمَّا أُسْطُورَةُ هَامَانَ فَقَدْ وَرَدَتْ فِي الرِّوَايَةِ عَلَى لِسَانِ مَيْمُونَةٍ، وَكَانَتْ الْإِرَادَةُ مِنْ إِزَادَتِهَا حَمْلَ غِيلَانَ عَلَى الْأَتْعَاضِ وَالْإِقْتِنَاعِ بِضُرُورَةِ الْإِنْصِرَافِ عَنِ الْخَلْقِ وَقَدْ وَجَدَتْ فِي قِصَّةِ هَامَانَ مَبْتَغَى وَوَسِيلَةً.

هَامَانَ شَخْصِيَّةٌ مَرْجِعِيَّةٌ، وَزَيْرُ أَحَدِ الْفَرَاغَةِ ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ. وَلَمْ يَكُنْ ذَكَرَهُ فِي التَّنْزِيلِ ذَا وَظِيفَةٍ دَالَّةٍ عَلَى الْمَحْمُولِ الَّذِي أَسْنَدَ إِلَيْهِ فِي "السَّدِّ" - وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُسْعَدِي اخْتَارَهُ لِمَا لَهَا مِنْ تَشْتِيتٍ مَا قَدْ يَظْهَرُ إِرْسَاءَ مَعْنَا عَلَى ثِقَافَةٍ مُحَدَّدَةٍ أَوْ عَلَى حَقِيقَةٍ تَارِيخِيَّةٍ مَا وَكَانَ الْمُسْعَدِي حَرِيصًا عَلَى ذَلِكَ، يَرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ تَارِيخَ الْإِنْسَانِيَةِ كُلِّهِ

حاضرا في نصّه فنجد فيه ما يشير إلى أقدم الحقب كما نجد إشارات إلى البيئة الحاضرة:

- ترى أأقرّ أمره بأغلبية أصواته أم بالإجماع؟¹

كلّ هذا يجعل تقييد الرواية بتاريخ ما أو بحاضرة ما مجرد تأويل قابلة للتعدّد. ذكرت ميمونة هامان مفرغا من كلّ محمول تاريخي لكنّها ذكرت أبعادا له كثيرة، فهو شخص محمّل بالحسّ، يفنى فيه، وكان مسرحا لصراع عنيف بين العقل والحسّ، يميت أحدهما الآخر، لكنّ المغلوب ينبعث ويصبح غالبا، وفي النهاية يجمنّ هامان لأنّه لم يستطع أن يكون عقلا خالصا ولا حسّا خالصا، ولم يستطع أن يحدث التّوازن بين العقل والقلب.

كما ذكرته في العلاقة بغيلان فجعلته تقيضه، لذلك كان غيلان يحبّه لأنّه نفى من نفسه ما كان غيلان يريد إثباته من إنسان مطلق مريد. وما تريد ميمونة أن تثبته هو أنّ الإنسان يظلّ إنسانا ما ظلّ فيه التّعادل بين نصيب القلب ونصيب العقل من وجوده. هذه الفكرة الأخيرة هي الفكرة التي أراد المسعدي أن يوصلها وأراد توفيق الحكيم أن يبلغها من عديد مسرحياته الذّهنيّة. لكن ميمونة في سائر النّص لا تمثّل هذه الفلسفة بل تدعو غيلان إلى أن يكون قلبا محضا وعاطفة خالصة. وعلى نقيضها تقوم ميارى، وهي في

الميتولوجيا الهندية مايا ولين، إلى أن أضاف الكاتب لاحقة للاسم الأصلي الذي يطلق على قوة مضللة حسب الديانة الهندوسية. وهي في الرواية القوة الدافعة لغيلان نحو التطرف والإيمان المطلق بقدرات مطلقة كامنة فيه، في حين أن هذه القدرات محدودة، فهي تدفعه نحو تصوّر أنطولوجي للإنسان مغلوط وزائف: تصوّر الإنسان عقلا محضا وفعلا محضا وإرادة مطلقة. أما ميمونة فقد مثلت هي الأخرى قوة جذب متطرفة حين نفت على الإنسان الخيال والفعل والعقل والإرادة.

خاتمة: تجلّي النظام الأسطوري -باعتباره محاولة لتفسير العالم- في شكل من البنى الحكائيّة صاغها الإنسان قصد الاعتبار بأحداثها. وبحلول الفلسفة محلّ الأسطورة لم يتخلّى الإنسان على ذلك الطابع الحكائي، بل اتّخذه رافدا مهما لإثراء التصورات الجماليّة والأنظمة التعبيريّة، بحيث أصبحت الأساطير نظاما سيميائيّا ينضاف إلى اللغة. وهكذا تميّز الفنّ الحديث -وخاصّة الأدب- بتعدّد الأنظمة السيميائيّة ممّا أدّى إلى تعدّد القراءات وتعدّد الإحالات المرجعيّة، وإدماج القارئ المساهم في بناء دلالة النصّ بوظيف قدرته التأويليّة. وفي ذات الوقت توسّعت آفاق النصّ فتعدّدت مشاربه عبر الأزمنة والأمكنة والثقافات وأصبح نصّا إنسانيا إلى جانب محلّيته، وطابعه الدياكروني ونصّ السّد -باعتباره نصّا معاصرا- تشرّب من معين الأساطير ووظّفها توظيفا فكريّا وسياسيّا وفلسفيّا.. وقد دفع به ذلك إلى مخالفة الرواية كما وردت في الميتولوجيا.

تفنيد تهمة إحراق مكتبة الإسكندرية من قبل عمر بن الخطاب

بقلم: عبد الكريم العطاوي

مقدمة:

قبل الدخول في صلب هذا الموضوع، ينبغي علينا أن نتساءل عن خطة عمر بن الخطاب في الفتوحات الإسلامية التي قام بها في بعض الأقطار المجاورة للجزيرة العربية فنقول: ماهي دوافعها؟ وهل كانت هذه الفتوحات تتسم بالشدة؟ وكيف وقفت منها الشعوب؟ وهل تقبلها الشعب المصري وقتئذ بمقاومة أو بترحيب؟ لماذا؟ وهل وقع الرد على هذه التهمة تاريخياً؟

للحواب عن هذه الأسئلة كلّها نقول: إن دوافع عمر بن الخطاب في تسيير هذه الفتوحات، كانت بدافع حماية الدعوة الإسلامية وذويها من كل مكروه، لا بدافع الحقد والاستعمار والقوة، لأنّ الدين الإسلامي يأبى الإكراه، كقوله تعالى: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"¹ كما أنه كان يدعونا إلى نشر ديننا بالكلمة الحسنة والجدل الحكيم

كقوله تعالى: "أذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"¹.

هذه الآيات القرآنية، ومثلها الأحاديث النبوية، ما كانت لتغيب عن نظر عمر بن الخطاب، الذي كان يوصي كبار الصحابة الفاتحين بمعاملة تلك الشعوب في الشام ومصر معاملة حسنة، لذلك كنا نرى الشعب المصري المغلوب على أمره في خلافة عمر - كان يتطلع بفارغ الصبر إلى الخلافة الإسلامية بأن تخلصهم من المظالم المسلطة عليهم من الرومان وقتئذ، ولقد سرهم ما سمعوه من حسن سيرهم في البلاد التي فتحوها، وما إن عزم القائد عمرو بن العاص التوجه إلى مصر حتى فاجأه كتاب عمر بالإذن التالي: "سيأتيك كتابي هذا، في سيرك، فإن وصلت إلى مصر فأتكلم على الله، وإن لم تصل فارجع من حيث أتيت" إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن عمر بن الخطاب كان يخشى ما يخشاه على المسلمين أن يصيبهم الإخفاق والفشل.

لكن قدرة الله تعالى، حققت أمنية عمرو بن العاص في الدخول إلى مصر بأقل التضحيات، فعامل المصريين يومئذ معاملة حسنة ولم يفرق بين الفرق المسيحية الملكانية واليعاقبة الذين كانوا متساوين أمام القانون الإسلامي، كلهم سواء. قال توماس ارنولد:

"يرجع النجاح السريع الذي أحرزه غزاة العرب قبل كل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي، لما عرف به من الإدارة الظالمة، وما أضمره من حقد مرير على علماء اللاهوت وعلى اليعاقبة الذين كانوا السواد الأعظم من السكان المسيحيين قد عوملوا معاملة بمحفة من أتباع المذهب الارثوذكسي التابعين للبلاط¹.

ولقد سلك العرب المسلمون سياسة مرضية تجاه المصريين، تمثلت في حمايتهم، وأمنهم على أنفسهم ونسائهم وعيالهم فشعروا براحة كبيرة، لم يعهدوها منذ زمن طويل، لم تقتصر على الأمن فحسب، بل أعادوا النظام إلى البلاد، وحققوا إصلاحات متطورة وشاملة لكل القطاعات الاجتماعية، فنظموا الإدارة ونصبوا القضاء، ورسموا خطة جباية الخراج، ومدوا هندسة الري وبنوا مقاييس للنيل وأنشأوا الأحواض والقناطر والجسور، فتحسنت حال القبط وزادت ثروتهم. لكن مع هذا كله، قد وجهت تهمة إحراق مكتبة الإسكندرية إلى الخليفة عمر بن الخطاب من بعض المؤرخين المسلمين الذين جوهوا برد تاريخي منطقي من قبل المؤرخين الغربيين أمثال "جبون وبطلر وسديو وجوستاف لي بون الذين ارتابوا في صحة هذه التهمة وقالوا: "إنها تخالف التقاليد الإسلامية، كذلك لم

يؤيدها من المؤرخين المعاصرين للفتح الإسلامي مثل: أوتينا الذي وصف فتح مصر بإسهاب، لم يرد في تاريخه ولا في تاريخ غيره من معاصريه ذكر لهذه التهمة، كذلك لم ترد في تاريخ الاقدمين كاليقوبي والبلاذري وابن عبد الحكم والطبري والكندي ولا في تاريخ من جاء بعدهم واخذ عنهم كالمقريزي وأبي المحاسن والسيوطي وغيرهم.

إلا أن عبد اللطيف البغدادي (226هـ — 1231م) وابن القفطي (646هـ — 1246م) وأبا الفرج الملقب بنسبوا صراحة إحراق مكتبة الإسكندرية إلى عمر بن الخطاب معتمدين في ذلك على السنة العوام بما يدل دلالة واضحة على أن التبعة واقعة على عبد اللطيف البغدادي الذي أهمل المنهجية التاريخية والمصادر الحقيقية.

لكن مع هذا كله، قد اعتمد عبد اللطيف البغدادي ومن لفّ لفه على أدلة تثبت تهمة لعمر.

1/ إن المسلمين كانت لهم رغبة عظيمة في محو كل كتاب غير القرآن والسنة

2/ أنهم أحرقوا مكاتب الفرس عند فتح بلادهم كما ذكر ذلك حاجي خليفة في كتابه "كشف الظنون"

3/ أن هذه الرواية التي تثبت الحريق قد رواها عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي.

4/ أن إحراق الكتب كان أمراً معروفاً وشائعاً، يتشقى به كل مخالف ممن خالفه في رأيه.

5/ أن عبد الله طاهر، أُلّف في سنة 213 هـ كتباً فارسية من مؤلفات المحوس وحذا حذوه هولاء التتاري سنة 656 هـ وإلقاء خزائن الكتب في دجلة.

هذه الأدلة التي ساقها عبد اللطيف، وقع الرد عليها بأدلة منطقية تثبت وهنها وعدم مصداقيتها.

(1) الدليل الأول: فغير مسلم به، لأن المعروف من أخلاق المسلمين أنهم كانوا يشجعون العلم بدليل قوله تعالى: "يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ¹". كما كانوا في غزوة بدر يجعلون فداء من لم يجد مالا من المشركين يفتدي به نفسه، أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين وهذا منتهى التشجيع للعلم².

(2) الدليل الثاني: وهو أنهم أحرقوا مكتبة الفرس عند الفتح. فلم نر من المؤرخين من ذكره إلا حاجي خليفة ومثل هذا المؤرخ، لا يأخذ بكلامه ولا يعول عليه في المسائل التاريخية المتقدمة لأنه توفي سنة

1 - (المجادلة 11)

2 - نفس المصدر ج 1 ص 243

1067هـ / 1657م، فلو أن المسلمين أحرقوا هذه المكتبات لذكر ذلك المؤرخون الذين تقدّموا حاجي خليفة¹.

(3) الدليل الثالث: وهو أن أبا الفرج لم يرو هذه الرواية وحده بل رواها أيضا عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي وهما مؤرخان إسلاميان عظيمان يمكن دحض تلك الرواية بما أوردناه في مناقشة ما ذكره أبو الفرج لأنهم عاشوا تقريبا في عصر واحد وروايتهم واحدة ولا يبعد أن يكونوا قد أخذوا عن مصدر ضائع معاد للعرب والإسلام².

(4) الدليل الرابع: لا يثبت روايتهم الواهية، لأن عبد الله بن طاهر كان متأخرا (213هـ) لا يؤخذ موقفه حجة على عمر بن الخطاب المتوفى سنة (23هـ) كما أن عبد الله هذا أحرق كتب المجوس عباد النار وفرق واضح بين الكتب المسيحية والمجوسية في نظر المسلمين الذين يحترمون كتب أهل الكتاب، لاتفاقهم معهم على عقيدة واحدة هي الاعتراف بإله واحد قادر (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا)³.

1- نفس المصدر ج 1 ص 243

2- نفس المصدر ج 1 ص 243

3- آل عمران 64

وقد أسهب بعض المؤرخين في تفنيد رواية أبي الفرج كـ "جبون" و "بطلر" وسديو وغيرهم وقد ذكروا ما يدل على أن عمرا وعمروا بريثان مما نسب إليهما¹.

وخلاصة رواية أبي الفرج، تحتوي على أن رجلا في وقت الفتح اكتسب شهرة علمية يدعى "يوحنا النحوي" كان يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبيين ثم رجع على ما يعتقد النصارى إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية فاتصل به يوحنا فأكرمه عمرو لمعارفه الواسعة، ولأزمه في حلّه وترحاله. قال يوحنا ذات يوم مخاطبا عمروا: "فمالك به انتفاع فلا أعارضك فيه، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به، فقال له عمرو: "وما الذي تحتاج إليه؟ قال: كتب الحكمة التي في خزائن الملوك. فقال له عمرو: لا يمكنني أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقد كتب إلى عمر وعرفه قول يحيى فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التي ذكرتها، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله، فلا حاجة إليه، فتقدم بإعدامها، فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية، وإحراقها في مواقدها، فاستنفدت في ستة أشهر².

هذه الرواية غيم مسلم بها لضعفها وبعدها عن الحقيقة.

1- نفس المصدر ج 1 ص 244

2- نفس المصدر ج 1 ص 245

لو قصد عمر تدمير المكتبة لأحرقها في الحال، ولم يتركها تحت رحمة أصحاب الحمامات، ولم يتمكن وقتئذ "يوحنا" من أخذ ما يلزم من هذه الكتب بثمن بخس. في حين أن "بطلر" ذكر أن "يوحنا" قد مات قبل استيلاء العرب المسلمين على الإسكندرية بأربعين سنة، وإن صحَّ هذا كان معناه دحض ما جاء بهذه الرواية¹.

2- لو كانت هذه الرواية صحيحة، لذكرها مؤرخان شهيران قدما عبد اللطيف، و أبا الفرج، وهما "أوتبخا" المتوفي 311هـ — و"يوحنا" أسقف "فقيوس"، المختصان في تاريخ مصر، فضلا عن أنه لم يذكرها المؤرخون المتقدمون كابن الحكم والبلاذري واليعقوبي والطبري.

3/ إن هذه المكتبة قد أصابها الحريق مرتين: الأولى سنة 48 ق.م على اثر إحراق أسطول "يوليوس قيصر"، والثانية في عهد القيصر توديسيوس (359-378م).

4/ إن قول "أورازيوس"، انه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب عند زيارته مدينة الإسكندرية في أوائل القرن الخامس الميلادي، يثبت بالدليل الواضح عدم وجود هذه المكتبة، قبل استيلاء العرب على الإسكندرية.

5/ إن التعاليم الإسلامية، تخالف رواية أبي الفرج وعبد اللطيف، لأنها ترمي إلى عدم التعرض للكتب الدينية اليهودية والمسيحية وكذا غيرها، لأنه يجوز الانتفاع بها.

6/ وإذا ثبت أن المسيحيين أحرقوا هيكل "سيراييس"، فمن المعقول أن النيران قد التهمت ما فيه من الكتب.

7/ لو فرضنا أن هذه المكتبة بقيت إلى الفتح الإسلامي، لوقع نقلها إلى القسطنطينية على أيدي الروم أثناء الهدنة لأن عمرو بن العاص أجاز لهم في عهد الصلح نقل كل ما يقدرون عليه¹.

بناء على هذه الأدلة المنطقية التي تثبت وهن وضعف رواية عبد اللطيف البغدادي وأبي الفرج الذين نقلوا رواية أشبه ما تكون بالخرافة، لاعتمادها على ألسنة العوام والخرافات التي تسيء أولاً إلى التاريخ الإسلامي، وثانياً إلى سيرة كبار الصحابة، وثالثاً إلى السيرة النبوية، ورابعاً إلى الرواية الإسلامية الصادقة المدعمة بعلم الدراية.

على أساس هذه الأدلة المنطقية العقلية، نقول أن إحراق مكتبة الإسكندرية المنسوب إلى عمر بن الخطاب كان محض افتراء، لما عرف به عمر من تشجيع على طلب العلم الذي يعتبر فريضته على كل مسلم.

مسلسل تاريخ علم الوراثة في أجزاء

بقلم : د. ضياء بوكتيلا

باحث ومدرس جامعي في اختصاص علم الوراثة (المعهد العالي

للبيو تكنولوجيا بياجة)

للتواصل: dhia_bouktila2000@yahoo.fr

الجزء الخامس :

إروين شارغاف

كيميائي الوراثة و ناقد العلم و العلماء

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

1- مقدمة:

تعرضنا في الجزء الفارط إلى تجارب آفيري التي كشفت عن الحامل المادي للمعلومة الوراثية بكونه ليس سوى الحمض النووي منقوص الأكسيجين (ADN). وقد أبدى المجتمع العلمي آنذاك صعوبة بالغة في استساغة هذه الحقيقة، لاعتقاد الكثير من العلماء بأن جزيء الـ ADN يتميز ببساطة تركيبية لا تجعله مؤهلا لإيواء شفرة وراثية شديدة التعقيد.

على أن زمرة من العلماء أدركت وقع هذه الحقيقة وحاولت اقتفاءها، ومن هؤلاء العلماء جورج بيدل (George Beadle) وألوف (A. Lwoff) وإروين شارغاف (Erwin

(Chargaff) الذي تخصص له الجزء الحالي من مسلسل تاريخ علم الوراثة.

2- إروين شارغاف : باحث رحالة

ولد إروين شارغاف (أنظر الصورة) في الحادي عشر من أغسطس سنة 1905 بمدينة تشيرنوفيتش (Czernowitz) الأوكرانية، و كان وطنه أوكرانيا في ذلك الزمن جزءا من الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية. تلقى إروين شارغاف دراسات في الكيمياء و أخرى في الآداب بمدينة فيينا (Vienne)، و في الفترة الفاصلة بين 1920 و 1928 أبدى شارغاف شغفا شديدا بالدروس و المحاضرات التي كان يلقيها الأستاذ كارل كراوس (Karl Kraus)، الذي أطلق عليه لاحقا لقب "أستاذي الوحيد" كتعبير عن مدى تأثره بمنهجه و عرفانه له.

و بقدوم العام 1928، انتقل إروين شارغاف إلى الولايات المتحدة الأمريكية أين تم قبوله بجامعة يال (Yale) التي زاول دراسته فيها الى حدود 1930. عند ذلك التاريخ، عاد إروين شارغاف مجددا إلى القارة العجوز ليستقر في مدينة برلين الألمانية، و لكنه ما لبث أن عانى من السياسات النازية لألمانيا المحتلة، مما دفعه إلى التنقل مجددا، حيث تم قبوله للعمل كباحث في إحدى الجامعات الباريسية. وفي سنة 1934، عاد شارغاف من جديد إلى الولايات المتحدة

الأمريكية، حيث وجد في جامعة كولومبيا (Columbia) أطيّب الظروف لمزاولة أبحاثه في مجال الكيمياء الحيوية (Biochimie). تحصل شارغاف على الجنسية الأمريكية في سنة 1940، وفي الولايات المتحدة الأمريكية استقر به الحال إلى حين تقاعده عن العمل في سنة 1974.

3- المنعرج العلمي

لقد انتمى شارغاف إلى مجموعة العلماء التي آمنت بصدقية و أهمية أعمال أفيري (Avery) حول التحول البكتيري. عندما كان أفيري بصدد نشر خلاصة أعماله و تجاربه في الأربعينيات من القرن المنصرم، كان شارغاف يدير مختبرا متخصصا في الكيمياء الحيوية في جامعة كولومبيا، و كان مجال بحثه في ذلك الوقت يتعلق بالبروتينات الدهنية (Lipoprotéines) و هو مجال لا يكاد يمت بصلة إلى الوراثة و آلياتها. غير أن تعرف شارغاف إلى أعمال أفيري جعل حاسة العالم عنده تدرك أن للأحماض النووية مكانة عظيمة في عمل الخلايا الحية، فقرر بالتالي تحويل اهتمامه من ذلك الحين و صاعدا إلى دراسة الأحماض النووية لمحاولة اقتفاء و تطوير أبحاث سلفه "أفيري".

4- معادلات و نسب "شارغاف" : إتحاد الكيمياء الحيوية و علم الوراثة

أنجز "إروين شارغاف"، بفضل تطور تقنية الكروماتوغرافيا الورقية (Chromatographie sur papier)، دراسة حول القواعد الأزوتية (Bases azotées) لدى مجموعة كبيرة من الأجناس الحية. و تعد هذه القواعد الأزوتية إحدى مكونات الأحماض النووية إلى جانب السكر الخماسي (Pentose) و جزيئات الفوسفات (Phosphate).

إن القواعد الأزوتية الموجودة داخل جزيء الحمض النووي منقوص الأكسجين هي الأربعة التالية :

- الغوانين (Guanine): ويرمز إليها بحرف G.

- الأدينين (Adénine): ويرمز إليها بحرف A.

- الثيمين (Thimine): ويرمز إليها بحرف T.

- السيتوزين (Cytosine): ويرمز إليها بحرف C.

لقد توصل شارغاف بفضل هذه الدراسة التي نشرت سنة 1950 إلى معادلتين أساسيتين تتعلقان بالقواعد الأزوتية:

● المعادلة الأولى : كمية الأدينين داخل نواة كل خلية حية مساوية لكمية الثيمين: $(T = A)$.

● المعادلة الثانية: كمية الغوانين داخل نواة كل خلية حية

مساوية لكمية السيتوزين: $(C = G)$.

ويعني ذلك بأن القواعد الأزوتية الأربعة تنتظم، على الأرجح، على شاكلة زوجين متحدين:

- زوج A مع T.

- زوج G مع C.

كما بينت الدراسة التي أنجزها شارغاف - و التي اشتغل فيها على عدد من الأجناس، كالبكتيريا و الفأر و الجنس البشري - النسبتين (les deux rapports) التاليتين :

• النسبة الأولى : $\frac{A+G}{T+C} : T = A$ و $C = G$ ، فإن نسبة

تساوي 1، و ذلك لدى كافة الأجناس.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

• النسبة الثانية: نسبة $\frac{A+T}{G+C}$ تساوي قيمة قارة بالنسبة لأفراد

جنس معين، و لكنها متغيرة من جنس الى آخر.

5- أهمية معادلات و نسب شارغاف

تعتبر معادلات و نسب "شارغاف" حلقة تاريخية مهمة، تجسم فيها تعاون علم الكيمياء الحيوية مع علم الوراثة. لقد كان علم الوراثة قبل معادلات "شارغاف" كلاسيكيا الى أبعد الحدود ويسدور في فلك الوراثة المندلية (Génétique Mendélienne)، و بفضل

التحاق الكيمياء بعلم الوراثة، بدأ هذا الأخير يتحسس طريقه نحو الدراسة الكثيفة للجزيئات المورثة (Les molécules de l'hérédité). أما من زاوية علمية بحثية، فإن أهمية نسبية شارغاف تكمن فيما يلي:

● النسبة الأولى وهي : $\frac{A+G}{T+C} = 1$.

تسمى هذه النسبة "نسبة تركيبة الـ ADN"، إذ أنها توحى بارتباط كل قاعدة A مع قاعدة T وارتباط كل قاعدة G مع قاعدة C، وقد تم الإرتكاز على هذه النسبة لإنجاز نموذج جزيء الـ ADN من طرف العالمين واتسون (Watson) وكريك (Crick).

● النسبة الثانية وهي : $\frac{A+T}{G+C}$ = قيمة قارة داخل الجنس ومتغيرة من جنس لآخر.

تسمى هذه النسبة "نسبة الخصوصية الجنسية للـ ADN"، إذ أنها تبين أن جزيء الـ ADN هو جزيء حامل لخصوصية، فهو ليس مجرد تركيبة جزيئية ساذجة ورتيبة (Structure moléculaire naïve et monotone)، وبالتالي فإن هذا الجزيء الحامل

للخصوصية هو مؤهل تماما لأن يكون حاملا للهوية و للمعلومة الوراثيتين. ويشكل هذا تصديقا لنتائج آفيري و دحضا لمناوئيه.

6- نزاع "شارغاف" مع واتسون و كريك: غير العلماء

كما أسلفنا الذكر، فإن نسبة "شارغاف" الأولى أو نسبة تركيبة الـ ADN قد شكلت منطلقا و مرتكزا لواتسون و كريك لانحياز نموذج يسمى نموذج اللولب المزدوج (double hélice)، نشره سنة 1953 بمجلة الطبيعة (Nature) ذات الصيت الكبير، و حازا بفضلها على جائزة نوبل للفيزيولوجيا و الطب سنة 1962.

و يستمد هذا النموذج روحه من انتظام القواعد الأزوتية في شكل زوجي A و T من جهة G و C من جهة أخرى، و هما أساسا المعادلتان اللتان كشف عنهما شارغاف. و لعله من الوقائع اليرئة (أو عكس ذلك) أن "واتسون" و "كريك" في مقالهما الشهير المنشور سنة 1953 لم يشرأ مطلقا إلى عمل شارغاف الذي كان منطلقا لهما. ويبدو أن ذلك الأمر قد أزعج "شارغاف" ألما إزعاج وجعله - و هو صاحب الشخصية الحادة و الناقدة و الميالة إلى الصدام - ينكر على "واتسون" و "كريك" نموذجهما الذي صمماه بل جعله ذلك ينسب النموذج إلى نفسه و يهاجم كلا من "واتسون" و "كريك" بأشنع النعوت، من ذلك أنه وصفهما أثناء مقابلة صحفية بالمهرجين (Clowns).

وواقع الأمر أن نموذج اللولب المزدوج لم يتبادر قط إلى ذهن "شارغاف"، فهو من إنجاز "واتسون" وكريك اللذين تصورا كنموذج احتمالي (hypothétique) وسعيا إلى تحقيقه (vérification) بالتعاون مع "فرانكلين" (Franklin) و"ويلكينز" (Wilkins). وفي مقابل ذلك، لعله كان يتوجب على "واتسون" و"كريك" التنويه بالدراسة الكيميائية لـ "شارغاف" التي شكلت منطلقا لنموذجهما.

... ليس العلماء متهين عن التزاغات الشخصية والغيرة بل لعلمهم من أكثر الناس تعرضا لها !

7- "شارغاف" المفكر و الناقد والحكيم: شخصية مثيرة للجدل إنه الملقب بـ "الطفل الزهيب للعلم المعاصر"، ذو شخصية مثيرة للجدل حقا: تثير الإعجاب لدى البعض وتدعو إلى الإزدراء من قبل البعض الآخر. لقد امتاز "شارغاف" منذ اكتشافاته العلمية في الخمسينات بشدة وقسوة تجاه نظرائه العلماء البيولوجيين، حتى أنه كان يصف جلهم بـ "المتخصصين الضيقي الأفق و البرابرة المستعدين لبيع أنفسهم للقوى العسكرية أو الصيدلية إذا كان ذلك سيمكنهم من الإثراء السريع" (والكلمات طبعا لشارغاف).

لقد كان "شارغاف" إذن شديد التأسف لانعدام الثقافة و المسؤولية لدى الكثير من البيولوجيين ويصفهم بالمستولن الرئيسيين عن

تدهور الطبيعة من خلال ظهور القنبلة الهيدروجينية و تفاقم مختلف أشكال التلوث. و لم يتوقف نقد شار غاف على العلماء بل تعداه إلى العلم نفسه، حيث يعتقد بأن على هذا الأخير التراجع قبل تجاوز كل الحدود الأخلاقية و الوصول إلى الانفجار. في هذا الصدد يقول "شارغاف": "لقد اخترقنا كل الحدود التي يمكن للطبيعة أن تتحملها. إن تدهور جزئي ذي تركيبة خصوصية و معقدة يتم على مراحل متتالية : تغيرات بسيطة في بادي الأمر ثم تبدأ تلك التغيرات بالتراكم حتى الإهيار التام الذي يكون مدويا و انفجاريا و لكنه ليس فجئيا بل حدث بالتدرج".

جمع "شارغاف" مختلف أفكاره الفلسفية حول العلم و العلماء في مؤلف بعنوان " نار هيراكليت " بدأ فيه شار غاف بوجهين: المؤمن و الشاك... مؤمنا بالطبيعة و لكن شاكا في العلم المعاصر، حيث يقول بشأنه: "لقد أصبح هذا العلم شديد القوة و الارتباط بالتكنولوجيا".

ترجم " نار هيراكليت " من الألمانية إلى الفرنسية مؤخرا في سنة 2006، صادرا عن منشورات فيفيان هامى و كانت ردود الفعل إزاء فلسفة "شارغاف" في غاية التضارب. من ذلك هذان التعليقان الصحفيان على الكتاب و الكاتب:

• "هذا الهامشي يث عبر سيرته الذاتية البائسة سموم كراهيته

للجنس البشري... إنه "واعظ" شديد التأثير بالتراجيديا التي طبعت
عصره". ر. سولييه - مجلة "لوفيغارو" (R. Soulié - Le Figaro Magazine)

• "إنه كتاب فذ... الرجل الذي اكتشف في سنة 1945 تركيبة
الـ ADN يتصدى فيه للأخطار المميتة التي صار يلقينا فيها علم
أمسى مجنوناً". ب. سوليرز - لوفيل أوبسرفاتور (P. Sollers - Le Nouvel Observateur)

8- قال "شارغاف"...

"في العلوم، المنهج أكثر أهمية من الهدف، ذلك لأن العلوم لا نهاية
لها".

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

9- نهاية الرحلة:

توفي "إروين شارغاف" في 20 جوان 2002 إثر 97 سنة من
الأسفار والأبحاث و الفلسفة. ويعود إليه الفضل في افتتاح حقبة
جديدة من علم الوراثة تميز بإضافة العلماء الكيميائيين، ويطلق على
هذا المنهج "علم الكيمياء الحيوية الوراثية" (La biochimie
généétique).

و في الجزء القادم نسلط الضوء على أعمال الأمريكي "جيمس
واتسون" والإنكليزي "فرانسيس كريك"، حول تركيبة جزيء
الـ ADN.

10- المصادر و المراجع:

- Chargaff, E. (1950) Chemical specificity of nucleic acids and mechanism of their enzymatic degradation. *Experientia* 6, 201.
- Chargaff, E. *Le Feu d'Héraclite*, traduit par Chantal Philippe, éditions Viviane Hamy, 2006, ISBN 2-87858-185-7, 300 p.
- <http://www.nobel.se>
- http://fr.wikipedia.org/wiki/Erwin_Chargaff



إروين شار غاف (1905 - 2002)

حوار مع الأستاذ الدكتور صالح داسي حول منهجه في التفسير

حاوره: الباحث محمد الرزقي

صدر هذه الأيام عن دار سنابل للنشر، كتاب الأستاذ الدكتور "صالح داسي" "مدخل للتفسير: تفسير سور من قصار المفصل" والذي يعدّ أوّل محاولة في التفسير تشهدها تونس بعد "التحرير والتنوير" للجهيز الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ومواكبة لهذا الحدث الجلل، ارتأت أسرة تحرير مجلة الإتحاف أن تلتقي صاحب الأثر وتسكب بعض الضوء على حياته الخاصة وتبسط منهجه في التفسير أمام السادة القراء، خاصة أن الرجل قضى ما يقارب عن نصف قرن في البحث واشرف على أكثر من مائة رسالة دكتوراه في الجامعة التونسية، كما انه لم يغادر ارض الوطن رغم كل الإغراءات.

وقد رحب الأستاذ الداسي بهذا اللقاء وشرع لنا أبواب بيته وقلبه وفتح لنا خزانة ذكرياته على مصرعيها، فكان لقاء حميميا وعفويا إلى أبعد الحدود، وأول سؤال توجهت به إلى محاورنا:

لو نتعرف أكثر على الأستاذ الداسي، الذي يحلّ ضيفا مبعثلا على صفحات مجلة الإتحاف.

اسمي صالح الداسي، من مواليد مدينة "نفطة" سنة 1939 وفيها حفظت نصيبا من القرآن وتلقيت تعليمي الابتدائي.
- لو نعود إلى مسيرتك الدراسية، كيف كانت؟ وما هي أهم محطاتها؟

- بعد نجاحي في المرحلة الابتدائية، اجتزت مناظرة كللت بالنجاح، فانتقلت للدراسة بالمرحلة الثانوية بمدينة توزر، وبعد دراسة دامت أربع سنوات، توجتها بحصولي على شهادة الأهلية، انتقلت للدراسة بتونس العاصمة وتحديدا بمعهد ابن خلدون (9 أفريل حاليا) يقول مخاطبي أن هذا المعهد إضافة إلى الحمي الزيتوني والذي يحمل اليوم اسم معهد ابن شرف، شيد بفضل التبرعات السخية للمواطنين وخاصة النسوة القاطنات داخل الجمهورية، واللاتي تبرعن بحليهن، حتى يجد أبناؤهن مكانا للدراسة، وهو ما ينم عن وعي عميق وحب كبيرين للعلم وتعلق لا متناهي بالوطن، وهذا ليس غريبا عن أهل هذه الأرض الطيبة) لأنال شهادة التحصيل والتحق بعدها بكلية الشريعة وأصول الدين، فأتحصل منها على الإجازة سنة 1968 ويقع تعييني أستاذ عربية بمعهد مجاز الباب.

- هل كان حريج الزيتونة يدرس العربية؟

- طبعاً كان يدرّس العربية، ولم يبدأ التخصص إلا سنة 1972، إذ أصبح خريج الزيتونة لا يدرس إلا مادتي التربية الإسلامية والتربية الوطنية، وأثناء مباشرتي لمهمة التدريس، كنت سجلت في الدراسات العليا سنة 1976، ليقع انتدائي بالجامعة الزيتونية سنة 1984 برتبة أستاذ مساعد، اثر مناقشتي لرسالة "التفسير الإشاري عند أهل السنة (دكتوراه مرحلة ثالثة)، وبعد ثمان سنوات من البحث، تحصلت على شهادة الدكتوراه دولة، لأخرج على التقاعد سنة 2002، برتبة أستاذ تعليم عالي، وكنت تحصلت قبلها على رتبة أستاذ محاضر بفضل مجموعة من الدراسات القرآنية نشرتها بمجلة الهداية، ناهز عددها عن أربعين دراسة، وهذه الأيام انتظرت حصولي على رتبة أستاذ متميز وهي آخر رتبة في سلم التدرج الوظيفي بالتعليم العالي.

- بعد هذا النجاح الباهر، لمن تدين بالفضل؟
يعود الفضل إلى الله أولاً، وإلى والدي -رحمها الله- ثانياً، لأنها هي من وقفت إلى جانبي وشجعتني، وأتذكر أنها كانت ترسل لي كل شهر نصف دينار، ولا تكف عن الدعاء لي في كل الأوقات، وكانت تدعوني دوماً إلى الاحتماء بالصبر، إذ أن والدي لم يكن متحمساً لأواصل دراستي.

يصمت محدثي ويغرق في بحر من الذكريات. ولم يقطع جبل ذكرياته إلا سؤالي التالي: لماذا تأخر صدور كتابك الأول كل هذا الوقت؟

- أريد أن أشير في البداية أني كنت مولعا في شبابي بالأدب، حتى أني تحصلت على جائزة في المرحلة الثانوية من خلال برنامج هواة الأدب، الذي يثّ عبر موجات الإذاعة الوطنية، ويشرف عليه حينها المرحوم مصطفى خريف، كما كنت أكتب مقالا في الأدب كل أسبوع بجريدة الجيل الجديد، والتي كان يشرف عليها الطيب المرزوقي، إضافة إلى النشر بمجلة الهداية.

أما على مستوى المؤلفات فهي تتطلب وقتا وتفرغا، وهو لم يكن متاحا أمامي نظرا لمسؤوليات التدريس وتشعب متطلبات الأسرة.

* - ما الغاية من تأليف هذا الكتاب؟

وضعت هذا الكتاب في حقيقة الأمر تيسيرا علي من سيأتي بعدي من الأساتذة وطالبي العلم على حدّ سواء، لأنني لما انتدبت بالجامعة وجدت صعوبات حمة في تدريس مادة التفسير إذ لم تكن آليات التفسير قد تم ضبطها، فاجتهدت في ضبط الآليات الأخلاقية والعلمية والبيداغوجية وبسّطت مصطلحات هذا العلم قدر الإمكان.

* - ما أهمية هذا الكتاب؟

يعتبر هذا الكتاب أول تجربة تفسيرية معاصرة تعتمد أساليب البحث العلمي القائمة على المنهجية والمرحلية وتوثيق المعلومة فهي تجربة بكر.

والمطلع على هذا الكتاب يجد في بداية كل سورة تمهيدا عاما وعنصرا لمراحلها، إضافة إلى الأوجه المختلفة في قراءتها وقد استعنت بالمأثور والمعقول مع الوقوف على الأسرار البلاغية، والتركيز على الجوانب التربوية، لأن السور كلها مكية، تُدَف بالأساس إلى غرس مبادئ الوحدانية ومخاطبة الله والعمل إلى ما بعد الموت.

*- عفوا أستاذ صالح، لقد اطلعت على الكتاب أكثر من مرة، ولاحظت غياب رأيكم الشخصي في الكثير من المسائل. يظهر رأيي في حقيقة الأمر من خلال تحيّر الأفكار وترتيبها واختزالها، باعتبار أن أهم ركيزة في البحث الأكاديمي، تتمثل في الموضوعية إلا أن ذلك لا يعني غياب تام لمواقفي الخاصة، بل هي مبثوثة بين السطور.

*- اعتمدت أستاذ الدّاسي في تفسيرك على التفسير الترتيبي للقرآن الكريم، واليوم يقول الكثير من الدارسين أن هذه المدرسة انتهى عهدها ويجب اللجوء إلى مدرسة التفسير الموضوعي.

أوافقك الرأي تماماً، لأن التفسير الترتيبي يستترف الكثير من الوقت والجهد، وإن كانت الدعوة إلى اعتماد المدرسة الموضوعية، هي دعوة قديمة، ولا أدل على ذلك اعتماد بعض المفسرين هذه المنهجية في استخراج آيات الأحكام، وهو ما يتوافق اليوم مع نمط الحياة المعاصرة، فحتى على مستوى الطب لجأ الإنسان إلى الطب الجماعي، حتى لا يلحق ضرر بهذا المخلوق الحادث، فما بالكم إذ تعلق الأمر بكلام الله القديم والذي نجد فيه آيات تتعلق بعلم الاقتصاد، والاجتماع والنفس.

* - إذا لماذا اخترت أن تفسر القرآن تفسيراً ترتيبياً؟

اخترت هذا النمط احتراماً للمأثور أولاً، وحتى يطمئن القارئ للمفسر الذي يطالع أثره بأنه متمكن على طريقة القدامى. كما يجب على من سيخوض هذا الباب أن يملك رصيداً من المشروعية والمناصرين، وبالتالي إذ أقدمت على تفسير القرآن كاملاً، فلن يكون إلا تفسيراً موضوعياً.

* - سؤال قبل الأخير، لماذا تعاملت مع دار نشر داخلية وهي دار

سنابل، رغم أنك مقيم بالعاصمة ولا تنقصك العلاقات؟

هناك حنين خاص يشدني إلى تلك الديار، إذ درست بمعية مكملة مكثرت من سنة 1970 إلى سنة 1972، إضافة إلى تحمس صاحب الدار للكتاب وحسن خلقه.

*- في الختام ماذا تريد أن تقول لقراء الإتحاف؟
أدعوهم إلى مطالعة هذا الكتاب، والتأني في قراءته، وأعتذر منهم
مسبقا إن وجدوا بعض الأخطاء المطبعية فالكمال لا يكون إلا لله.



قراءة في المجموعة الشعرية "قيصر النساء"

لحنان الوحيشي

بقلم: عمر الكزازي

حين أمسكت بالكتاب وقرأت عنوانه تتالت عليّ جملة من
الفرضيات سرعانما التقت في نقطة واحدة.
وحملتني الذاكرة إلى عمر بن أبي ربيعة وأتباعه وصولاً إلى
نزار قباني.

العنوان يوحي بسطوة الرجل (قيصر) وأحادية الفعل لديه
مقابل ضعف الجنس الآخر وخضوعه رغم التعدد.
<http://Archivebeta.Sakhril.com>
كما أنّ قولك "قيصر النساء" ليس كقولك "نساء القيصر"
والفارق في المعنى تحدّثه الإضافة وتحديثه الصدارة أيضاً.

فتحت الكتاب ورغم موقعي الشخصي من بعض أنماط
الكتابة الشعرية فقد حملت نفسي على القراءة ووجدتني أواصل
السفر في نصوصه دون انقطاع. ما الذي شدني إليه؟ أهو الأسلوب،
الصور الشعرية، الموضوعات، الإيقاع أم كل هذه الجوانب مجتمعة؟
لا أدري. المهم أنّي قلبت ثناياه حتّى النهاية.

للهولة الأولى عدت إلى العنوان لأقارن بين مضمونه
ومضمون المتن فبدأ لي أنّ الكتاب بدأ "قيصر النساء" وانتهى

"قيصرة الرجال" فالقيصر حضر في الافتتاح فقط ثم تقهقر شيئاً فشيئاً إلى أن توارى خلف القضبان وأخذت مكانه صاحبة الشأن فحوّلت إلى كائن مجهري يقع عليه فعل الفاعل "فانا كشجرة الزيتون شامخة... تعيش دون قلب (ص 83) أتقن فنّ الغزو". هذا التحول القيصري يوازيه لدى المبدعة خروج من دائرة تلقي الفعل (حنين ونزاريات/ حديث الصمت) إلى دائرة الفعل (زمبقات على ضفاف القصيدة/ لماذا؟/ قدر القهوة) وقد يأخذ هذا التحول أبعاداً أعمق وأكثر جرأة عندما نرى الأنا الضحية يصبح الأنا الجلاد في تبادل للأدوار ينمّ عن انقلاب صارخ. فهل هو خروج من مرحلة البراءة وما تتسم به من هدوء واعتماد على الكهل إلى مرحلة الترشّد الذاتي وما يتسم به من فطام في العاطفة والفعل وأخذ القرار؟.

وقد بدا لي من إعادة فحص النصوص الواردة بالمجموعة سمة تبدو راسخة الحضور تنمّ عن اللعب على المتناقضات: هي التأرجح:
 أ- بين السذاجة الطفلية وما فيها من تقبّل وخضوع لإرادة الكهل وإملاءاته، حتّى الإهداء يترجم ذلك- وبين الشعور بالاستقلالية والعنفوان والخروج من الطوق المكبل.
 ب- بين الحنين إلى الحظن والتمردّ عليه وتدميره حتّى (التمردّ ص 20 تكسّرت المزهريّة ص 64).

ج- بين الغباء والذكاء (ص 76) والعنف والرقعة (توَحَّش ملائكي ص 76).

د- بين النظرة القائمة (ص 69) والنظرة الوردية (افتح ذراعيك للحياة ص 78).

في هذا السياق يفيد فحص النصّ ص 69 "قدر تائه على رصيف الساعة" أنّ الحقل الدلالي الطاغى هو الموت: من خلال المعجم التالي: محنطة/ تغتاله/ بالموت/ الفناء/ ميتة/ أكفان/ جثث/ اغتالها/ آفلة.



أيّ مشهد تلك عناصره؟

هـ- التّأرجح كذلك بين الصّحّح والضحيج وبين الصمت والسكينة: النصّ ص 27 حيث تكرر لك عبارة الصمت خمس عشرة مرّة. "الصمت" صاحب أحيانا ساكن أحيانا أخرى. وفي ذلك خروج بالكلمة عن دلالتها الأصلية وشحنها بنقيضها- الصمت لم يعد يعني السكون وانعدام الحركة فقط.

هذا عن الجانب الذاتي في النصوص فماذا عن الجانب الفئّي؟.

طرحنا على نفسي السؤال التالي: هل ما تكتبه حنان الوحيشي هو شعر؟ ووجدتني أعود مرّة أخرى لأغوص في متن الكتاب وأتحسّس الوميض بين طياته، متسلّحاً بمقياس ثلاثي الأبعاد:

- 1/ للشعر قضية بصيغة المفرد أو الجمع.
 - 2/ للشعر أدوات تعبير من حيث اللغة، الأسلوب، الصّور الشعرية وما يعبر عنه بماء الشعر.
 - 3/ الإيقاع الذي يميّز بين الكتابة الشعرية وغيرها من الأنماط الأخرى.
- تلك كفايات أساسية لا مجال للتنازل عنها.
- وبما أنّ ما أقدمه في هذا الغرض هو قراءة وليس دراسة اكتفي ببعض الملاحظات:
- فمن حيث القضية، أقرّ بالصعوبة التي واجهتني في تبين ملاحظتها لكنني أرى في النهاية أنّها تناولت وضع المرأة في علاقتها بالآخر وترجمت جلّ النصوص هذا التناوب بين العواطف والغرائز والميولات والعقل والطبيعة. فالإنسان محكوم بهذه القوى ولعله يستمدّ إنسانيته من هذا التناوب بين حالات الانفلات الغريزي والعاطفي وحالات التعلّق والتبصّر في مدّ وزجر لا ينقطعان.
- كما أنّ لهذا الانغماس في الجانب الوجداني ما يبرّره تبعاً لعمر المؤلفة وللتجارب المعيشية في هذا الطور من الحياة.
- إنّ الأدوات التعبيرية المستخدمة في هذه النصوص فيها من الطرافة وحسن الصياغة وبداية امتلاك للصناعة الشعرية ما يبعث على الاطمئنان.

أمّا عن البعد الثالث فقد نأت صاحبة المجموعة عن التفعيلة وأوكلت أمر الإيقاع إلى تواتر الرّوي دون إفراط وغطية. ولعلها في بعض المقاطع استعارت أسلوب الشعر الفرنسي في ذلك باعتمادها القوافي المتقاطعة (Rimes croisées) ص 35 في المحصّلة أقول:

1/ إنّ الحضور الشعري في هذه المجموعة قائم وجليّ
2/ إنّ بعض التعديلات مندوبة أذكر منها خاصّة مزيد الاشتغال على النّصوص. ذلك أن النصّ الشعري المنبعث من رحم القرينة غير قابل للتسويق في حينه، هو من قبيل الخامات الشعرية التي لا بدّ من تعهدها بالمراجعة والتشذيب والتنقية حتّى تتحمّل وتخرج في أبهى صورة ولا بأس في رأيي من مراجعة أخرى توكل إلى عين فاحصة وتمرّسة.

3/ أرجو أن أرى الشاعرة تخرج من الدائرة التي تموقعت فيها إلى أخرى أكثر اتّساعها فللشاعر أمانة التعبير نيابة عن غيره في كلّ المجالات التي تعنيه وتشدّه وتفتحهم اهتمامه وأتمنّى لها المزيد من التوفيق والتألق.



تحية إكبار للعقري الفذّ

الأستاذ "محمد المراكشي"

المهندس الفلاحي الذي أصبح رائد علم
الوراثة الجزئية بتونس.

بقلم لطفي الشارني

مقدمة:

ودّعت الأسرة العلمية بتونس في شهر أفريل 2008 ، أحد أهمّ أبنائها
البررة الذي رفع رايته خفاقة في جميع المحافل العلميّة العالميّة، وهو
الأستاذ محمد المراكشي. وقد عرف المرحوم بحزمه وعزمه وعلوّ همته،
إضافة إلى كفاءته العلميّة التي شهد له بها القاصي والداني ممّا أهله ليكون
أول المتخصّصين والمؤسّسين لعلم الوراثة الجزئية بتونس، وواضع لبنات
أكبر مخبر لعلم الوراثة والبيوتكنولوجيا في الوطن العربي.

وقد أردت بهذا المقال تكريم الرجل وتخليد ذكره، من خلال الوقوف
على سيرته الذاتيّة وتبسيط الضوء على أهمّ إنجازاته العلميّة، خاصّة أنّ
سيرته تصلح أن تكون عنصر إلهام للأجيال القادمة فهي لبسة وفاء من
أحد الباحثين الذين تكوّنوا على يديه، واحتكّوا به في المجال الإنساني
والعلمي.

I- سيرته ومسيرته

1- طفولته ومراحل تعليمه:

ولد محمد المراكشي بصفاء قس في 22 جانفي 1942. حيث زاول دراسته الابتدائية والثانوية هناك وقد عرف بمجديته وذكائه الوقاد ومثابرته وهي خصال مكنته من التميز في دراسته التي توجت بدخوله المدرسة القومية للفلاحة بتونس ليتخرج منها بشهادة مهندس فلاحيا بامتياز حيث كان معدله 20/17.5 وحاز بذلك على جائزة رئيس الجمهورية سنة 1967.

2- المراكشي باحثا بفرنسا:

تغير مسلك الدراسة علامة تميز، لم يلتحق المراكشي للعمل كمهندس فلاح بوزارة الفلاحة بل قرر مواصلة مسيرته العلمية فهاجر إلى فرنسا حيث واصل تعليمه للتخصص في علم الوراثة بجامعة باريس 6 حيث تحصل على شهادة الدراسة المختصة في علم الوراثة ثم نظرقا في الكيمياء الحيوية البنيوية والاستقلابية مما دعم تكوينه ليحصل لاحقا على شهادة الدراسات المعمقة في علم الوراثة ثم واصل البحث لينال شهادة دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية (اختصاص علم الوراثة). والجدير بالذكر هنا هو النقلة النوعية التي قام بها هذا الطالب المجتهد إذ استطاع تغيير مجال علمه وتخصصه من الهندسة الفلاحية إلى علم الوراثة. فهذا الرجل لم يرض بما دون التميز بما توفر لديه من همة وعزم فراح يرقى درجات المعرفة.

3-رسالة دكتوراه المراكشي تخرج جينات النمو من الفرضية إلى

الحقيقة:

لقد اهتم الباحث المتميز بموضوع الجينات المحددة للنمو لدى ذبابة الخلّ إذ يعتبر هذا الموضوع جدّ مهمّاً في تلك الفترة (السبعينات) حيث البرهنة على وجود هذه الجينات يمكنّ ليس فقط من فهم أكبر لدور الجينوم بل و أيضا فهم تطوّر الكائنات الحية والعلاقة الوراثية بينها. و في هذا المجال وفق الباحث اليافع من وضع تمشّ تجريبي مكّنه من بيان الجينات الرئيسية المحددة للنمو لدى ذبابة الخلّ (*Drosophile*) وهي نتائج جدّ مهمة مكّنت الباحث من الحصول على شهادة دكتوراه الدولة بامتياز وقد نشرت هذه النتائج في مجلّات علميّة مختصة ومشرفة.

دُعي الدكتور اليافع للبقاء بفرنسا والعمل هناك إلا أن وفاءه لوطنه جعله يفضل الرجوع إلى تونس للمساهمة في بناء صرح العلم وإعلاء رايته. وقد شغل عدة مهام أثناء فترة تواجده بفرنسا، منها مساعد جامعي ومدير بحث.

4- المراكشي يتجاوز الصعوبات ليؤسس أكبر مخبر بحث بتونس:

عاد المراكشي إلى أرض الوطن و قد تم انتدابه أستاذا محاضرا بكلية العلوم بتونس ليدرس اختصاصه وهو علم الوراثة بداية من سنة 1976. ارتقى بعد ثلاث سنوات إلى رتبة أستاذ التعليم العالي. هذا الارتقاء لم يزد المراكشي إلا حماسا و جدية و مثابرة و عطاء بشهادة كلّ من عاصره.

خلال فترة تواصلت 10 سنوات تقريبا أطر فيها الأستاذ المراكشي رسائل أبحاث الشهادات المعمقة ورسائل الدكتوراه أنتجت موارد

بشرية هامة من مساعدين، أساتذة مساعدين وأساتذة محاضرين ارتشفوا على يديه مبادئ علم الوراثة ومناهج البحث تمكن الأستاذ المراكشي من بناء مخبر علم الوراثة الجزيئية والمناعة و البيوتكنولوجيا سنة 1999 بعد تذليل عدّة صعوبات مادية و معنوية وقد انضوت الأبحاث في هذا المخبر تحت عنوان كبير وهو دراسة تفاعل الجينوم مع المحيط

(Interaction génome-environnement).

تنقسم الأبحاث في هذا المخبر إلى فروع تهم أحداها بتثمين الموارد الجينية النباتية (ressources phylogénétiques) بوطننا ومن أهم النباتات التي درست في هذا الفرع:

• التخل حيث درس التنوع الوراثي لواحبات التخليل بالجنوب التونسي وتهدف هذه الدراسات للبحث عن فصائل ذات ثمار جيدة و مقاومة للفطريات.

– نبتة السلة (Hédysarum) وهي من النباتات ذات القيمة العلفية الهامة وهي شبيهة بنبات الفصة (Medicago) وقد درس التنوع الجيني لهذه النبتة ليضع بنكا جينيا محليا لها بغية تثمينها.

– الحشرات المتطفلة على نبات القمح والتي تسبب سنويا في ضياع نسبة هامة من محاصيل الحبوب. و تتم في هذا الصدد دراسات متوازية على نبتة القمح والحشرة المتطفلة (cécydomie) بغية الحصول على نباتات مقاومة لهذه الآفة.

- الفيروسات المسببة للأمراض (maladies virales) التي تصيب الخضروات و هذه الأبحاث تهدف إلى الحصول على نباتات مقاومة لهذه الفيروسات. كما تدرس أيضا بهذا المخبر عناصر أخرى من الآفات الالاحلوية تعرف بالفيروسيدات (viroides).

- اهتم هذا المخبر إلى موفى سنة 2005 بدراسة التنوع الوراثي للمجموعات السكانية بالبلاد التونسية (البربرية والعربية والأندلسية) وبدراسة الأمراض البشرية أهمها السرطان بأنواعه، أمراض السكرى... ولتنامي عدد الباحثين بهذا المجال فقد كوّن هذا الفرع مخبرا جديدا لعلم الوراثة والمناعة والأمراض البشرية تديره الأستاذة أمال القعيد.

و إذا ما نظرنا إلى التقنيات المعتمدة والنتائج المتوصل إليها فإن هذا المخبر يعتبر من أهم المخابر في تونس بل و في إفريقيا والعالم العربي إجمالا.

5- ثمار البحث:

أطر الأستاذ المراكشي منذ 1976 إثنتا عشرة رسالة دكتوراه دولة، ثلاث تأهيلات جامعية، أكثر من أربعين رسالة دكتوراه و عشرات الدراسات المعمّقة والماجستير كما ساهم في تقييم عديد رسائل الأبحاث بوطننا.

نشر الأستاذ المتميز محمد المراكشي بمعية فريقه أكثر من مائتي مقال (articles) في مجلات علمية عالمية متخصصة كما أنتج بحره ثلاث براءات اكتشاف وطنية هي بصدد التقييم.

6- أهم الأعمال المرافقة للبحث

لقد أشعت سمعة المراكشي باحثا و أستاذا في الوطن وخارجه لذلك فقد أوكلت له عديد المهام الوطنية و الدولية

أ- المهام الوطنية

شغل المراكشي عديد المهام العلمية ببلدنا نستعرض منها للذكر لا للحصر:

- عضوا بالمجلس العلمي بكلية العلوم بتونس
- مديرا لقسم البيولوجيا بكلية العلوم بتونس
- مؤسسا و منسقا خلال عدة سنوات لشهادة الدراسات المعمقة اختصاص علم الوراثة و الأحياء الجزيئي.
- عضوا للمجلس العلمي بالمعهد الوطني للفلاحة بتونس.
- عضوا للجنة الوطنية الاستشارية للعلوم البيولوجية.
- عضوا و رئيسا للجان تقييم المترشحين للتدريس و الارتقاء في رتب التعليم العالي باختصاص العلوم البيولوجية والمهندسة البيولوجية.
- عضوا بلجنة المشروع الوطني النموذجي للموارد الجينية النباتية والبنوك الجينية.
- رئيسا للجنة المكلفة بتقييم مشاريع FROMSET.
- عضوا للجنة الوطنية لتأهيل معاهد التعليم العالي لتكوين المهندسين.
- عضوا للجنة الوطنية الفنية للتنمية المستدامة.
- عضوا للجنة الوطنية النموذجية لمشروع المحافظة على التنوع البيولوجي والتصرف في المحميات.

- عضوا للجنة الوطنية تقييم مراكز البحث الفلاحية.
- عضوا للجنة إسناد جائزة 7 نوفمبر للإبداع والابتكار في ميادين الثقافة و الفنون و العلوم.
- عضوا للجنة الوطنية للأمن الغذائي (biosécurité) منذ تأسيسها.
- عضوا للجنة الوطنية النموذجية للبنك الوطني الجيني.
- كما نظم العديد من الدروس الهادفة لرسكلة أساتذة التعليم الثانوي للعلوم الطبيعية. و قام بتقييم الكتب المعتمدة بالتعليم الثانوي مادة العلوم الطبيعية.

ب- المهام الدولية:

- منسقا لعديد مشاريع الشراكة العلمية مع عديد الدول بالعالم منها فرنسا بلجيكا، أسبانيا، البرتغال، إيطاليا، المغرب، موريتانيا، مصر، الأردن، فلسطين، الولايات المتحدة الأمريكية و كندا.
- عضوا لشبكة البيولوجيا الجزئية الخلوية (Molecular Cell Biology Network MCBN).
- عضوا بالمجلس العلمي المغاربي و منسق للشبكة المتوسطة لنبات الفصّة (Medicago).
- مستشارا جهويًا للمجتمع العالمي للبيولوجيا الجزئية للنبات.
- مراسلا للاكاديمية الفلاحية بفرنسا.
- عضوا للجان تقييم المقالات العلمية بعدد المجالات العلمية العالمية
- عضوا للمكتب التنفيذي للاتحاد العالمي للعلوم البيولوجية.

كما نظّم الأستاذ المراكشي عديد الدروس النظرية و التطبيقية العالمية آخرها تلك المتعلقة بالبحث عن الأجسام المحوّرة جينيا في الأغذية الذي نظّم بتونس بالتعاون مع أوروبا.

7- العمل الجمعياتي:

لقد آمن الأستاذ المراكشي بأهمية العمل الجمعياتي كمحرك للمسيرة العلمية بالوطن فساهم في تأسيس الجمعية التونسية للكيمياء البيولوجية التي تغيّرت لاحقا لتصبح الجمعية التونسية للعلوم البيولوجية حيث ترأسها لفترة طويلة و للذكر فإن هذه الجمعية تلعب حاليا دورا رياديا في النهوض بالعلوم البيولوجية والبيوتكنولوجيا بتونس حيث تمكّن الأيّام البيولوجية التي تقام في النصف الثاني في شهر مارس من كلّ سنة من جمع شمل عدد كبير من الباحثين التونسيين ومن المغرب العربي (تجاوز عدد المشاركين الخمسمائة باحث هذه السنة) للنقاش حول نتائج أبحاثهم وتبادل الخبرات وقد عمل مكتب هذه الجمعية على إرساء جمعية مغاربية للبيوتكنولوجيا هي الآن في مرحلة طفولتها.

II- تونس تكافئ ابنها البار:

لقد كرّم المراكشي من قبل سيادة رئيس الجمهورية في ثلاث مناسبات حيث حصل فيها على الوسام الوطني للاستحقاق سنة 2007 ووسام الجمهورية سنة 1990 وتحصل بحره على جائزة رئيس الجمهورية للبحث العلمي والتكنولوجيا سنة 2005.

خاتمة:

هذا عرض مختصر للسيرة الذاتية للأستاذ الباحث محمد المراكشي، وما يبرز جلياً من خلال هذا التقرير هو مساهمته الكبرى في رسم مسارات البحث والتدريس في ميدان العلوم البيولوجية في وطننا، وإذ نذكر الأستاذ محمد المراكشي فإننا نتذكر نموذجاً للباحث الوطني الصادق الذي جعل طموحه إعلاء راية العلم به ليذكر في المجتمع العلمي العالمي. هذا الرجل إن استطاع أن ينجز فذلك يعود أساساً لحضور الإرادة والعزيمة وروح المثابرة والأخلاق العالية و نكران الذات.

فهو وإن غاب جسدياً فإنه حاضر غير تركته العلمية الثمينة التي سترتها الأجيال العلمية المتعاقبة، بل سيتنعم الناس بشمار أبحاثه، ويخلد غير المنافع التي تحصل من قريب أو بعيد للأمة أفراداً وجماعات، لأنه ما من إنسان يحضر بجسده وروحه في هذا الكون ويزرع فبته أو يسقي حرثاً أو يقيم عمرانا... هو مصلح في الأرض خالد بين الناس رغم غياب الجسد، فما بالك بالذين قيل في شأنهم: "ورثة الأنبياء" إنهم ذلك التفر الذين انخرطوا في دائرة الخلود والحضور الدائم بين الناس غير ما بثوه من علم في الصدور، ومعاني بين السطور، وتجارب في المخابر بقيت فاعلة ومؤثرة و ترقد أجساد أصحابها في المقابر. وأستاذنا المرحوم ممن سجل حضوراً متواصلاً في صيرورة علمية قبل أن توافيه المنية. وإنا لنظن أن نفسه هناك راضية مرضية.

"يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي "

(سورة الفجر : الآيات : 27 ، 28 ، 29 ، 30)

إلى روح الفقيه الأستاذ محمد المراكشي

...تخليداً لعلامة رحل

بقلم: الأستاذ محمد الجمل

قال الرفاقُ بحسرة، ماتَ الزميلُ

فقلت مهلاً، لم يمتْ

هوَ حاضرٌ فينا، وللأجيال رمزاً... لم يزلْ



ARCHIVE

<http://Archive.kskhrd.com>

إن كانت أضنتُ العلومُ بعبثها

إن كان أنقلهُ الزمانُ بحمله

إن كان أفرزهُ الدهرُ من أصحابه

هو خالدٌ... فيما فعلْ

ما مات من دخلَ العلوم وما فُشلْ

ما مات من جعلَ العلومَ عقيدةً

ما مات من زرعَ العقيدةَ وارتحلْ

هو حاضرٌ فينا، وللأجيال رمزاً... لم يزلْ

صَحِبَ الشَّبَابَ بِحَنَكَةٍ وَكِفَاءَةٍ
مَا مَاتَ مِنْ زَرْعِ الْأَمَلِ
نَشَرَ الْبَحُوثَ بِحِكْمَةٍ وَكِنَافَةٍ
مَا مَاتَ مِنْ لَمْ يَكِلْ مِنَ الْعَمَلِ
مَا مَاتَ مِنْ أَرْسَى الْعُلُومِ وَمَا بَخِلَ
مَا مَاتَ مِنْ زَرْعِ النَّزَاهَةِ وَاتَّقَلُ
هُوَ حَاضِرٌ فِينَا، وَلِلْأَجْيَالِ رَمَزًا... لَمْ يَزَلْ

عَلِقَ الْوِرَاثَةَ وَاسْتَسَنَّ بِعِلْمِهَا بَلَّ اسْمَاتُ لِأَجْلِهَا
ARCHIVE
ما مَاتَ مِنْ ضَحَى بِنَفْسِهِ وَالْعُمْرِ
<http://Archive.ja.Sakhrat.com>
ما مَاتَ مِنْ تَخَلَّدَ فِيهِ اسْمُهُ وَاعْتَزَلَ
هُوَ حَاضِرٌ فِينَا، وَلِلْأَجْيَالِ رَمَزًا... لَمْ يَزَلْ

عَرَفَ الْكِبَارَ بِعِلْمِهِ وَطُمُوحِهِ
مَا مَاتَ مِنْ ظَلَّ الْمَثَالَ بِمَا فَعَلَ
جَهْدَ الْعَزِيزِ وَكَانَ يُلْهِجُ قَائِلًا
بِالْعِلْمِ تَنْعَتُ الْأُمَمِ
خَدَمَ الْعُلُومَ نَزَاهَةً وَتَفَانِيًا

في الجهد لم يخلُ، بذلُ
رَفَعَ البلادَ بصيته وبحوثه
ما مات من عَشَقِ الوَطَنِ
هو حاضر فينا، وللأجيال رمزاً... لم يزلُ
ضَلَّ التَّواضُعُ مِيزَةً في دَأْبِهِ
في الخُلُقِ أَعْطَانَا المَثَلَ
رحلَ الحكيمُ وكان يُؤْمِنُ بالعملِ
رحلَ المناضل عن عَجَلٍ
هو حاضر فينا، وللأجيال رمزاً... لم يزلُ
ما مات ... بَلْ لِلخُلْدِ أَقْبَلُ وَأَتَقَلُّ

ARCHIVE

<http://Archives.Sakhriz.com>

أستاذ كيمياء بكلية العلوم بتونس

ملاحظة : حرّرت هذه الأبيات على منوال القصيدة التي

كتبها نشأت رعدون، فنان تشكيلي عربي، بمناسبة وفاة الدكتور

جورج حبش في مارس 2008.

من أيّ درب أمرّ إليك

شعر: الهادي العثماني

أعلنت عن حبّك

منذ عشرين عاما

ومنذ أغنية في الهوى والحنين

يردّد ألحانها العندليب

لا صبر لي كي أضلّ وحيدا

أعالج حزني

وارحل عبر الطريق الغريب

نُحِث عن نفسي عشرين عاما

وعشرون عاما مضت

كم تضيع الأمانى وينأى القريب

لا شيء سيّدي يستحق البكاء

فقد عضّنا الدّهر عاما فعام

وقتنا طويلا

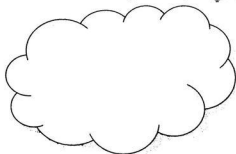
كم تاه من قبلنا العاشقون

حلّمت بك ذات ليل ترامي

مرافئ صدق

وأحلامي من ولع أو جنون
لا شيء سيّدني يستحيل علينا
سنجتاز خطّ التماس قليلا
سنعبّر هذا الطريق معا
إلى موعد بعد ليل حزين
كم متعب في هواك الرّحيل
وكم أرهق القلب هذا السكون
فمن أيّ درب أمرّ إليك
لكي لا يرى حشّتي الآخرون
أهرّب قلبي
بأعماق أشعاري كي لا أموت
تغيّر طعم الحياة تماما
تحوّل معنى السّكوت كلاما
فقلولي: سلاما على الأبرياء
إذا فضّ
أختامنا الشّامتون
رحلت بعيدا
فهل تسمعين صهيل الجراح بأعماق روحي

وهل تفضح الحب عيناك شوقاً إليّ
لا معنى للحبّ دونك أنت
لا معنى للعشق دون اعتراف العيون
هل تحبّيني هكذا شاعرا يشتهيكَ
فيكتب من وحيك البوح حرفاً
يغني الأمانى
ويشرب حزن المسافات صرفاً
إذا غطّ طرفاً رمته المنون
تعالى إذا أعلمك هذا الغناء الجميل
تعالى إليّ كما أشتهيك
نرتّب تفاصيل بوح الفصول
تعالى... أحبك هذا المساء
وهي القلب دفناً حنون.



تعريف الأرض

شعر: وحيد القريوي

خضراء ارض بلادنا

خضراء وارفة يداها

قد تظلل عاشقين

وتحرس الأحلام إن ناما..

بلادني حدّ مورقة خطاها

كلّما جفّت خطاك ترى بلادك في خطاك

وكلّما سافرت في الدنيا

تراها في سمانك غيمة.

حناء ارض بلادنا في زغرديات العرس عالية

ووشم في جبين الأم في زند الحدود

وفي دم الشهداء أغنية..

فكم من كفّها شربت عصافير الكلام

وكم على أبواها

كم صورة قد ألهمتني عندما غنيت في سري لها

كم عمرها

مليون عام تسقط الماغول والرومان من ورق الحكاية

عمرها

قبل اكتشاف النار كانت شعلة

قبل الزراعة قبل حرث الأرض

كانت نخلة

قبل الكتابة أحرفا كانت

بلادي

في جدار الكهف في الأهرام أحجية

وأحجية بابل في حدائقها

بلادي

فوق كف العمر عالية وعارية سواها...

إنما

من عهد قرطاج لم نسمع بأغنية تعلل زرعنا

هل جف في بئر الحكاية ماؤنا

أم حين جفّ الخطو منها لم نجد سنداً ومثكلاً...
<http://archive.bekasakhril.com>

تراها في خلاخيل العجائز في حجاب الجدد مهملة

بلادي

أو تراها في خيام البدو ساهرة

بلادي فكرة

خضراء مثل النسغ في عمر الزهور

وواضحة دروب الأرض

لكننا

إذا ما لغيمة اقتربت

سبقنا الزرع كي نسي مفاتها

بلادك جد موثقة بلادك

في خطاها الشوك

والأحلام في الأغلال مرهقة

لادي جد مرهقة

ولم أطلق من الأقفاص سقسقي

ولا للقول أجنحتي أعرت

وما تعلمت الكتابة باللهب..

فاصدح بصوتك عاليا

لتكون عكازا لها

واضدج بصوتك عاليا

لترد بعض حليبيها

واكتب

على الجدران فوق الغيم

اكتب

على الأسوار في الأهرام

اكتب

للأمم الطوائف والقبائل كلها

اكتب بنار الحرف:

"إما أمة أو لا تكون الأرض

إما أمة أو لا تكون بلادنا حضراء عالية"



لست وحدك من قلق

شعر: أنور اليزيدي

ضاقت بي الأسماء

واتسعت رؤاي

ضاقت بي الأكوان

وارتجفت يداي

لا الشمس تدهشني

ولا القمر

أفتش في دمي

عن واحة بكر

بلا عسس

أفتش في فمي

عن صرخة عن جثة بكر

بلا غربان تنهشها

أفتش فيك عن جسدي

عن الوجه المحمل بالغسق

لا تحترق لست الورق

اللات عادت من ورن

كلمات أملك



يرتديها الوحي
موجاً تحت موج
تحت نور فوق نور
والرؤى نثر جديد لا بخور
حاصر ضللك
واتبعها
لا تتبعها
للمعبارة والورق
اسحب مياهاك
واتبعها
كن شراعاً
كن رياحاً
كن جهاتك
والمدى
أجل رحيلك
للقصيدة
بالقصيدة
في القصيدة
للحرائق.. للبداية



لست وحدك من قلق

حطب تعطر بالرماد

بلا لهب

لعب تعطر بالدخان

بلا حطب

غضب تعطر بالنفاق

ولا غضب

وطن تعطر بالدماء ولا عرب

عرب تقوض اسمها

عرب تمجد لهذا سائحة

وتنسى أن لون المجد اسمها

ليس لي ما استعير

لا تجوز الاستعارة

والفضائح تشتهينا

والضمائر تشتهينا

والدوائر تشتهينا

حين نرقص أو ندور

لست وحدك من يسير

لست وحدك من قلق



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr.net>

ثورة امرأة شعر: منيرة بالحاج

ازرع أشواكك في قلبي
أو نضد ورد الإغراء
لا الشوك سيحرق وجداني
لا الورد سيلقى الإطراء
واعبث ما شاء لك الحب
كن ربحا تعصف بالعمر
كن شمسا حارقة الأجواء
ما عاد خريفك يربكني
تساوت في دربي الأشياء
أدمنت بعادك حتى آمنت
أن لقاءك بعض رجاء
هل تدري ما معنى أن
تحتاج شخصا عند الدماء

وبدونّه تصبح دنياك

والعمر تيتها وخواء

زهدي سيفرق نشوتك

ليحيل غرورك أشلاء

وستدرك أن هواك قد ضاع

ولم يبق سوى رجع الأصداء

وستبحث عن قلبي ولا تلقى

وتطوف جميع الأرجاء

وستسأل ما شاء لك الشوق

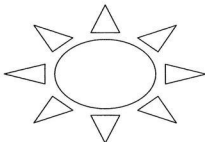
وتفتش كل الأنفج والأحياء

لكنك لن تلقى سوى طيف

أو صمت يفرق كل الأنباء

وستعرف أن زمانك قد ولى

والآن تدفع ثمن الأخطاء



رثوا دمائي على عروبي

محاولة بقلم: فاطمة البراري

كيف أحرّر كتاباتي

من كلمات عشقك

تركت أوجاعي

آلام... دماء... أبرياء... شهداء

لست أدري كيف أوقف حبك



نزيفي

ونزيف كل جريح

فلسطين... عراقي... عربي شهيد

حتى دماء الأعداء

عفوا أيها الشهداء

فالحب والحرب في كياني سواسيا

أوجاعكم تمزقني

آلامكم تبددني

آهاتكم تفتتني

وقطرات دمائكم تحرقني

أمواتكم لا تنسى

و الحداد لا يزال قائما

هل الوطن وطني



أتمنى أن يتركوني عربية

لأتباهى بالانتماء إلى عرب

الإسلام دينهم

وبلدهم طهرها الأنبياء

أبو جاسم وأضواء المدينة

قصة: محمد عبد السلام مرزوقي

تدافع الخافي مع المارة المحاذين للحافلة متعاليا بصوته البدوي في اتجاه " أبي جاسم " يرمقه بعينيه الجاحظتين ووجه العابس مستلظفا بنات الإفريقية بأهزوجة فرنسية رنّ صداها بمسمعي: " أحبك مثل الزهرة لكن الزهرة في الأرض وأنت في قلبي "

" أحبك مثل السمكة لكن السمكة في البحر وأنت في قلبي "

- مرحبا... مرحبا... مرحبا

كان اللقاء سريعا في تبادل القبل والتحية مسكونة ببرودة طقس المدينة التي هزمت أبا جاسم بأصوات مواطنيها العذبة وألبستهم التي غطتها ألوان قوس قزح تزداد بهاء فوق أجسام تخالها منحوتة بأياد مهرة.

- ماذا دهاك يا أبا جاسم ؟

- أه يا الخافي تكاد عيني تنجس في أجسادهن وركبي تتوقف كل ثانية لتسجد لملائكة السماء التي حدثوني عنها.

- إيه..! تقدّموا كثيرا واللحاق بهم يربك العقل.

كان هاجسي معقولا بسؤال معلّمي ذات حصّة صباحية : كيف نتقدّم ؟ لماذا ننحني هاماتنا أمام هذه العمارة الإفريقية؟ أو هذا الطريق الذي قال عنه الهامل بأنه يمشط عليه شعره المتعكّل كل

صباح؟ يلوب السؤال وتتكور الكلمات داخل حلقي فتزداد صعوبة وعسرا على الخروج، تلوذ باسم الجلالة المتقطع بين شفتين سكنتا ليلة ونصفا عن الكلام

— الله — الله ... ما أعظم شأنك يا الله !

وفي خلصة من جوارح مبهرة وعقل شارد وخزني أنور، جاء يرافق الخافي معجلا بالترحيب والتهليل ثم انكب بسرعة على حقبي وآستبقنا إلى المنزل، حينها عجل الخافي باستقداي إلى مقهى "لاكوكي"¹ طلبا لبعض الراحة واحتساء القهوة الفرنسية الخفيفة كخفة أجسام أهاليها ورشاقة أبدانهم.

— مرحبا سيدي، ماذا تريد أن تشرب؟
التفت الخافي إلي وقد كجهل قول التادل http://

— ماذا تريد أن تشرب يا أبا جاسم؟

— مثل ما تريد.

— من فضلك نريد اثنين من القهوة

كانت جلستنا أمام طاولة لا تحتوي على أكثر من ثلاثة فناجين زادت يدايا الكبيرتان ضيقا.

وبمر ذياك الوقت أرمق المقهى ومن حولي في حلم بالجنة التي حدثوني عنها كثيرا وأنوار العالم الآخر الذي بهرتني أضواءه من

¹ مقهى بمدينة نانت الفرنسية

شاشني المتقدمة التي ألصقتها بهوائي لم أستوفي خلاصه منذ عامين.
- إيه يا الحافي ! عالم غريب يبدو من أوّل وهلة معقدّ فهمه
ويستحيل على المرء فكّ أغواره واستجلاء غوامضه!

- لقد بدا لي الآخر أوّل ما نزلت إلى هنا
- أنتظنّ أني سأستطيع فكّ طلاسمه ؟
- إنك تبالغ يا أبا جاسم فمثلك لا يعجز عن هذا، سيجعل
لك الله مخرجا بإذنه.

بدت غرائب هذا العالم تنجلي الواحدة تلو الأخرى وتزيدني
عجبا وحيرة.

- يا إلهي ! ما هذا؟! هل يعقل أن تكون الساعة الآن الثامنة
والنصف ليلا والشمس تعلن ابتسامتها بعيدا عن الغروب.
- إنه أمر غير عادي، ماذا يمكن أن تقول لو أدركك شهر
رمضان صيفا وتفاجأت بالغروب مع الحادية عشرة ليلا.

- ردّ أبو جاسم مبتسما مازحا:

- سأفطر قبل ذلك طبعاً

كانت أضواء المدينة تحلّي تستقبلنا بفرح عارم في كلّ خطوة
أخطوها فظللّت كالطفل الذي ضاع عن والديه عاجزا عن تحديد
وجهة النظر أو السير، أمّا الهامل الذي تجلبب بحقيبة سوداء جانست
وجهه الحالك فقد أسرع إلى قطع تذكرة القطار (الترام) الذي

سينقلنا إلى منزل الإقامة.

- بون سوار

- بون سوار ميسيو

- يا إلهي ! هذا هو العالم الذي أبحث عنه، شابة في العشرين
تقتبل أضواء المدينة تبسم لي في كبرياء صارخ.

- أسرع يا أبا جاسم القطار يتحرك

- إيه من بلد تتحدّى فيه الأنوثة ظلمة الليل مطلقة عنان
صمتها لزمن رفض معاناة العذاري فاستسلم لمن في عجل.

ظلّ القطار في طريق عودتنا يحيل بنا يمنة وشمالا في رقصة عربية
كأنها تحتفل بقدومي وزاد المنظر بحجة أصواتنا إفرنجية عذبة تدخل
مسامعي دون استئذان وتلك الفتاة التي بجانبك الجلوس تستقيم
كأنها غصن مورق زان العربة فكساها سحرا ورونقا.
- "جون مولان"² .. صوت يمرّ على مسامع الرّاكبين كلّهم
ينبعث من مكان قيادة القطار.

- يا إلهي حتّى الأبواب تفتح بإذن من ربّها !!

- نعم يا أبا جاسم إنّه عالم آخر كل شيء يتحرك

بدت لي ملامح الحيّ الطويل وكأنّها عقد مرجان يصطفّ
الواحد تلو الآخر في عنفوان العمارة الإفرنجية المعهودة بعلوّها

² إحدى محطات التراموي (القطار الداخلي)

ورشاقة بنياتها.

- أتراني سأقيم في هذه العمارة أم الأخرى ؟ أظنّ تلك التي نتّجه إليها تذكّرت حينها نصّاً دراسيّاً "بدوي في العاصمة" ارتدى طربوش المثقّفين وأعلن عروبتي في ربوع الغرب لكن حشد الأضواء غمرتي فاستسلمت لها في نوم عميق تغمره حلم ضوضاء العالم الخارجي وشبح المستقبل الذي غلبني ذات يوم.

ترجو أسرة المجلة من كافة الإخوة

والأخوات الراغبين في مراسلة المجلة

العمل بما يلي:

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

1/ رقن النص المرسل لضمان مقروئيته

2/ ذكر الاسم واللقب والمستوى الثقافي

ورقم الهاتف والعنوان

ونحن نرحّب بكافة المساهمات في تأثيث

محتوى المجلة وإثراء مضمونها

لن يحمل ذكراك

قصة: ميساء الرخيص

جلستُ تستمتع إلى موسيقى البحر... موسيقى لطالما
أحببتها... لطالما حلمت بها... لطالما نبض بها قلبها الصغير...
فالبحر كان أمها عندما ذهبت أمها... والبحر كان أباهما
عندما رحل أبوها... والبحر كان بيتها عندما اختفى بيتها...
كما تقول هي ذلك اليوم "البحر عالمي"...
البحر كان حياتها... وكان كذلك قبرها و مماتها...
تقدر اليوم أن تقول: "البحر حياتي وموتي" أو "البحر أنا"،
هذا إن كان القول ممكناً في عالم مواز لعالمنا... سام عنه... هذا إن
بقي قلبها نابضاً بصوت تلاطم الأمواج على صخور الشاطئ...
يومها جلست على إحدى الصخور تستمع إلى موسيقى
البحر... ترقب لا نهايته... تستلذ رذاذاً كان يبلغ قدميها
الصغيرتين... تملأ صدرها برائحة الأعماق... رائحة البحر... لم
تكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمرها... فكانت في أهي
حللها التي أهدتها إياها الحياة... وقد غرست في عينيها الرياحين
جمالها... وقد منحت الشمس بشرتها لونا ذهبيا...

كانت تبتسم وقد تعلقت عيناها بالأفق... بل كان ثغرها
يبتسم... قد اعتلته ابتسامة الملائكة... أما عيناها فكانت تائهتين...
وأما قلبها فكان تائها... وأما نفسها فكانت تائهة...

فيومها كانت قد تساءلت: "من ساكون؟"

سبعة عشر عاما كانت قد مرت على أنغام حلم طفولي
عذب... سبعة عشر عاما وهي لا ترى أمامها غير يومها... لم تعد مرة
إلى الماضي... ولم تستشرف يوما غدها، ففي الصباح لم تكن ترى أمامها
سوى غروب الشمس، وفي المساء كانت تعلم فقط أن الشمس ستشرق
من جديد... أما اليوم فقد رأت الشمس تتحدث مع البحر لتحكي له عن
مسارها من الغد إلى النهاية... فتساءلت "من ساكون؟"

سمعتها إحدى الأمواج فاقتربت منها وقالت: "ابحثي عن ذاتك
وستجدينها... أظنها ستكون مغمورة بالمياه..."

سألته: "وكيف؟"

لكنّ الموجة كانت قد حلت على الضفاف فاخفت... "ستكون
ذاتي مغمورة بالمياه... ماذا تعني هذه الموجة بقولها ؟ يجب أن أسأل...
لكن من أسأل؟"

وقفت... وأخذت نعلها في يدها... ثمشت على ضفاف
الشاطئ محاولة اجتناب الصخور حتى لا تترف قدمها... ثمشي
وتأمل... تتمعن في البحر باحثة عن الموجة... فقد تعود لتجيبها...

وفي بحثها عن موجتها لم تنتبه إلى صخرة ضخمة توسّطت الرمال... فتعثّرت... وسقطت على الشاطئ وقد جرحت قدمها... انهمرت دموعها... ولم تقدر على الوقوف... فقد تمكن منها الألم... بكّت... صرخت... ولكن الشاطئ كان مقفراً... لا إنس فيه ولا جن... فاستسلمت لنعاس علّه يخفف من ألمها... غربت الشمس... هبت رياح ليلة غاب قمرها... فغمرت جسدها بالرمال...

في الصباح وجدها صياد عجوز كان يحاول دفع زورقه إلى الماء فاصطدم بذراعها... اعترته الدهشة، "فمن هذه التي تنام وتغطيها الرمال؟ من هذه التي تركت دفء البيوت وخيرت نسيم البحر البارد؟"

كثرت التساؤلات في ذهنه حتى كاد ينسى أنّها حذوه نائمة... ثم عاد إلى الواقع وقال: "لأنّنا نأخذها وأزى ما لها... <http://www.alnassim.com> نأسمع قصتها... قد يكون حبيبها قد تركها وقد حملت منه... أو قد تكون زوجة أبيها طردتها... كم أحب هذه القصص... وكم أشتاق إليها... فمنذ توفيت زوجتي لم أعد أجد من يجمع أخبار الجيران وقصص القرى المجاورة، لأوقظها ولأسمع قصتها".

انحنى العجوز... نفّس عنها ما علق بها من رمال... فرأى قدمها وقد التصق بها بعض الرمل تلوّن بأحمر دمها... فعلم أنّها جرحت... حملها على ذراعيه اللتين حافظتا على قوتها رغم تقدمه في السن... ووضعها في زورقه على غطاء كان فرشته لها... ثم سقاها بعض الماء من

جرة من الفخار كان يأخذها معه عندما يدخل البحر... استفاقت...
فتحت عينيها ونظرت حولها تبحث أين هي... فكان أول ما رأت
ابتسامة الصياد العجوز وهو يسألها: "هل أنت بخير؟"، فأجابت: "أظن أن
نعم... لكن قدمي لا تزال تؤلمني"

قال: "سأضع هذه الأعشاب البحرية على الجرح... فهي تزيل
الآلم كما تحمي الجرح من القيح..."

ابتسمت وقالت: "شكرا"... بقيت هنيهة وسألته: "أتعرف
ما معنى أن أكون مغمورة بالمياه؟" سكنت مطرقا... ثم قال: "ما
القصة؟ من قال لك ذلك؟ هل أراد أحد أن يفرقك في البحر؟"،
ابتسمت مطمئنة إياه... ثم قصت له حكاية الموجهة... ففكر لحظة
ثم ضحك وقال: "أظن أنها تريد أن تقول أنك ستعملين في البحر...
ستكونين صيادة..."

تعجبت: "لكنني لا أعرف الصيد ولم أمسك صنارة أو شبكة"
فأجابها: "ستعلمين... سأعلمك... وسنبداً ما إن يشفى
جرح قدمك..."

اعتلت ثغرها ابتسامة من المحبة الخالصة...
ابتسمت الشمس وضاعفت إشعاعها على الأرض... سكنت كل
الأمواج في البحر... هربت الغيوم من السماء...

فقرأ الصياد في تجاوب الطبيعة موافقة... وقال: "أرأيت؟ لقد تمكنت من فكّ لغز موجتك هذه..."

لم يكن البحر علمها النفاق أو المحاملات... فأجابته: "لم نتأكد بعد أنك محق في تفسيرك... لنتنظر حتى نجرب... فرغم ثقتك هذه فأنا لا أشعر باطمئنان لفكرة ركوبي البحر..."
 فشعر العجوز بإعادة ظهور الذكر فيه أمام هذي الأثني المتخوفة...
 وأحس بواجب حمايتها... فربت على كفها وقال: "لا تخافي مادمت بجانبك... فإني أتعهد بحمايتك".

رفعت رأسها... نظرت إليه... إلى التجاعيد التي حفرت وجهه... إلى يديه المرتعشتين... فأخفت ابتسامه كادت أن تغلي وجهها... فقد علمها البحر أن لا تكون سببا في جراح الآخرين...

سألها: "أين تقطين؟ وصحبة من؟"

أغمضت جفניה برهة وكأنها تبحث عن ذكرى دفتها... ثم قالت: "أقطن في لا مكان... أقطن صحبة لا أحد... لا رفيق لي سوى هذا البحر... ولا بيت لي سوى هذا الشاطئ" لم تكن الإجابة كافية فقد كان العجوز يكره الكلام الشعاري الذي لا معنى له... فقطب حاجبيه وقال: "ماذا تعنين؟ ولم تبقين وحيدة؟ أين أبوك؟ أين أمك؟ أين بيتكم؟"

ابتسمت... أخذت جرّة الفخار التي تحاذيها، شربت ما تبقى بها من الماء وكأنها تستعدّ لسرد حكاية طويلة... أصلحت من فستانها ما

تطايّر كاشفا عن رجلئها... رجلين كثرت جروحهما... ثم قالت: "لا يمكن أن أتكلّم اليوم... لا يمكن أن أبوح بسر استأمنني عليه البحر... لا يمكن أن أتكلّم قبل أن يحين وقت الكلام... كلاً ما سأقوله إني لا أذكر أن كان لي يوما أب... ولا أذكر أن كانت لي يوما أم... كل ما أذكر أن البحر كان دوما حذوي... أنه لم يتركني يوما وحيدة..."

"لم يتركني يوما وحيدة... ردّدت الأمواج صوّتها... غتّه الصخّور... واحتفظت به ذاكرة الصياد العجوز..."

يومها كان يوم عاصفة يوم قالت له: "لنذهب إلى الصيد..." استغرب طلبها وقال: "أتوئين ركوب البحر اليوم؟ أجننت؟"

ابتسمت وقالت: "لكنني تعلّمت الصيد، تعلّمت تقنياته... تعلّمت التحكّم في الزورق... واليوم إني أسمع البحر يناديني... إنه يناديني... بل يصرّ أن آتي إليه... لا يمكن أن أرفض طلبه..."

عبس العجوز... قطّب جبينه... كاد يغضب... لكنه عمّالك نفسه وقال: "لا يمكن أن تركبي البحر اليوم... فلا يمكن أن تتحكّمي في الزورق وقد علت الأمواج... إن ركبت فستركبين الموت..."

لم تنتبه لما يقول... أصرّت على عزمها... وأخذت تهيّئ الزورق... قال لها: "سآني معك..."

سألته: "أتريد أن تركب الموت؟"

أجابها: "أريد أن أكون معك... قد أقدر على حمايتك... فتجربتي مع البحر قد تمكنني من التحكم في الزورق أحسن منك..."

سألته من جديد: "أتريد أن تركب الموت؟"

قال: "لا يمكن أن أبقى هنا، على الشاطئ وأنا أعلم أن العاصفة تهاجمك... الأفضل أن أكون معك... على الأقل قد أتمكن من فعل شيء عوض الانتظار..."

لم تتركه يكمل وسألته مصرة على سؤالها: "أتريد ركوب الموت؟"

قال وقد أزعجه السؤال... وقد أزعجه تكراره: "لا... ولكني لا أريد أن تركبه وحيدة..."، فقالت: "لن تركبه معي..." كانت حازمة في كلامها... بل كانت تأمره. <http://Archivebeta.SA>

أجابها: "بل سأركب..."

أصرّت: "ابق مكانك... سأذهب بمفردي..."

قال: "ولكني لن أتمكن من العيش من دونك... فالأفضل أن أموت معك... أو أن أموت وأنقذك... فإن لم أجد يوماً الجرأة لأقول، فهذا أنا اليوم أقول لك: أحبك..."

ثم رأت دموعاً تلالأت في عينيه...

إلا أنها بدت وكأنها لم تعباً بكلامه... لم تجبه... ركبت الزورق... حاول اللحاق بها... أمسكت بذراعه ومنعته... قالت: "إن كنت حقاً تحبني فانتظري هنا... سأعود."

لم يجد خياراً إلا أنها ما إن ركبت البحر حتى بكى... كان واثقاً أن العاصفة لن تخافها... وقد علمته التجربة أن البحر يكون جائعاً أيام تكون أمواجه عالية...

جلس على الشاطئ يرقب الزورق من بعيد... لأول مرة يدخل زورقه البحر بلونه... فهو من اشتراه من المدينة منذ زمن بعيد... كان ذلك يوم أهدته زوجته يرحمها الله حليها يشتري بسعرها زورقاً... ابتسم لذكرها... لذكرى امرأة ضحّت من أجله... لذكرى امرأة أهدته شابها... أهدته جمالها... ثم أهدته عمرها... فتدخلت ملامحها في ذهنه... تمازجت بعلامح الصبية التي ركبت البحر وتركته يكي شابها... تمازجت الصورتان... لم يكن يعلم أيهما جاءت تناديه للحاق بها...

لكنه لحق بها... ذهب إليها مهرولاً... وقلبه ينبض حباً... وعيناه تشعان بدموع الفرح... كنا يلحق المحبون بأحبائهم... كنا يغادر الطيبون أجسادهم... كنا يدخل المحسنون عالم الموت... عالم الطهر... عالم الجمال الأبدي...

وجها شاحباً... وجسداً هامداً... وابتسامة باقية... كذا وجدته عند عودتها من رحلتها البحرية... ابتسمت...

عَلَّمَهَا البحر أن تبتسم لما يغادر أحدهم الدنيا ليلاقي إلهه...
فابتسمت... كانت تعلم أنها لن تراه ثانية... فبللت بعض الدمعات
حفيها... لكنها كانت تعلم أنه أحسن حالا اليوم... فابتسمت من
جديد...

لم يَعْلَمَهَا البحر ما تفعل بجسد هامد... لكنها حاولت... قالت إنه
كان يحب زورقه... فوضعت في زورقه... كما أنه كان يحب
البحر... فادخلت الزورق إلى البحر...

ما إن دخل البحر حتى أخذته الرياح بعيدا... وابتلعت الأمواج...
رحمه الله...

عادت لتجلس على الصخور... عادت لتفكر من ستكون...
وكيف ستعرف من ستكون... فقد ناداه البحر يقول إن الصيد ليس
طريقها...

وعند العودة قالت لها إحدى الأمواج: "ابحثي عن ذاتك بعيدا عن
البحر... فالبعيد طريق إلى القريب... البعيد طريقك إلى البحر..."
وكما كان الأمر في المرة الأخيرة لم تمهلها الموجة حتى تسألها...
واختفت...

أخطأ الصياد العجوز... ولكنها لم تخطئ أن آتبعته... كنا كاد
البحر أن يقول لها...

أما الآن فليس أمامها إلا أن تبحث عن نفسها... أو أن تبحث عن إنسان آخر قد لا يخطئ في تفسير أقوال الأمواج... وكما أمرها الموجة قررت الابتعاد عن البحر... لكنها توقفت برهة... "هل سأبتعد عن البحر؟ منذ ولدت أو بالأحرى منذ تبدأ الذكرى لم أر غيره ولم أبتعد عنه... إن ابتعدت فساكون وحيدة... وحيدة فعلا..." ولم تقدر على التحرك خطوة واحدة... نظرت إلى البحر... إلى الأمواج... إلى الزبد أبيض اعتلاها... إلى حياتها... إلى ذكرياتها... إلى بقايا حبها... إلى طيف طفولتها...

أغمرت الدموع على خديها... حينها عرفت أنها لن تقدر يوما على الابتعاد... على الرجل... على الوحدة... لن تقدر يوما أن تترك سبع عشرة سنة وتذهب... أما البحث عن نفسها... فليؤجل... أو ليلغى... سيكون ذلك أحسن... يكفيها أن تبقى في حضن من أحبت... وأحبها...

سمعت نداء منبعثا من الأعماق... موسيقى البحر... موسيقى سمعت فيها صدى نبضات قلبها وتحركات نفسها... ولأول مرة لا تعي معنى نداء البحر... لأول مرة لا تقدر على كشف أسرارها... لكنها قررت الارتواء في حضنه... كانت محتاجة لأن تشعر به قريبا منها، يحيط بها، يحميها... نزلت فستانها... واستحابت لندائه كما أحبت أن تفهمه...

وما إن دخلت حتى قال لها البحر: "لست أنا من يناديك إلى حضنه... بل هي أمك... إنها أمك تناديك إلى الارغاء في أحضانها... إنها أمك تريدك... إنها أمك اشتاقت لحبك... اذهبي... اذهبي وارغمي في حضنها..." استغربت كلامه وقالت: "لكنني لا أعرفها... لم أرها في حياتي... ماذا تريد مني اليوم؟ إنني لا أحب غيرك... أنت طفولتي... أنت أمي... أنت حياتي..."

أجابها: "اذهبي... اذهبي إليها... ولا تخافي... فأني معك في كل مكان..." ثم صمت... صمت كل ما حولها... وأصبحت لا تسمع سوى صوت أنفاسها...

خرجت... لبست فستانها... سبتحت عن هذه الأم التي تناديه... لكن أين ستجدها؟ هي لا تعرف حتى اسمها... لا تعرف شيئاً عنها...

حطّ طير اسود على كفها وقال لها: "ابحثي عنها بعيداً عن البحر... وستجدينها قرب البحر..." ثم اختفى كما ظهر... أخذت نعلها وابتعدت... لم تلتفت... كانت تعلم أنها لو رآته ستضعف وستبقى... فذهبت... قصدت قرية ساحلية قرية... قد تجد هناك من تسأل... هناك وجدت عجوزا... عجوزا تجلس على عتبة بابها... نادتها العجوز... كان صوتها صدى صوت تلاطم أمواج البحر في الليل... أجابتها... جلست حذوها... فقالت لها: "عمن تبحثين في هذه القرية؟ ومن أين جئت؟" لم

تُخف عنها شيئاً... حدثتها عن كل شيء، عن الموجة، عن الصيد، عن الطير الأسود... فابتسمت العجوز وقالت: "عرفت أمك يا حبيبي... مرت من هنا منذ سبع عشرة سنة... وكانت تسألني أين لها أن تضعك لتكوني في أمان... كانت حبلى آنذاك... وها أنت اليوم تسأليني أين لك أن تجديها... إنها لم تفارقك لحظة واحدة... ما إن بلغت حولك الأول حتى كانت هي قد فارقت الحياة... وجدها صياد عجوز مرمية على الشاطئ فأخذها في زورقه وسلمها إلى البحر... أنا من أشرت عليه بذلك... فلك كانت الوسيلة الوحيدة حتى تبقى معك..."

سألته حينها: "وكيف لي أن أرغمي في أحضانها اليوم؟"

ابتسمت العجوز مجدداً وقالت لها: "إنها تنتظرك في البحر... تحت الأمواج... في أعماق الحياة... على ذلك الشاطئ... أمك سهرت... وهامي اليوم تحترق... فارغمي في صدرها قبل أن يتحول إلى رماد... الشوق لهيب محرق يا حبيبي..." لم تتركها تكمل... أسرع إلى الشاطئ... إلى البحر... وقفت أمامه نظرت إلى أمواجه عليها ترى صورة أمها... بكت...

بكت الصخور معها... هدأت الأمواج لقداسة دموعها...

وقفت الأطيوار جامدة أمام حبه... ردّد الكون صدى شهقاتها...

وانتفضت الأرض... وغمرها البحر...

فارغمت فيه... ارتمت في أعماقه...

وغطتها المياه...

بقي نعلها يطفو على السطح...

أما هي فقد غاصت في أعماق حياتها باحثة عن حضن أمها...

فقد خافت أن تحترق أمها من أجلها دون أن تراها... فاحترقت

معها...

فارتقت في حضن حبيبها وأبيها وحياتها...

هدأ الكون...

صمتت الصخور...

عادت الأمواج إلى حركتها...

طارت الطيور من جديد... <http://Archivebeta.S>

ولم تبق ذكراها في غير قلب أمها التي نادتها...

والتي قالت لها يوما: "البحر يحمل الحياة ولا يحمل الذكرى"

